باب العامود



سمير الجندي

"باب العامود"

(قصص)

الطبعة الأولى (2011)

صدرت عن



دار الجندي للنشر والتوزيع - القدس

0097254226345

info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

الإخراج الفني

الريشة

00970599472620

سمير الجندي

باب العامود

قصص



الفهرست

آجر... رحمكم الله

تخلّيت عن كل مهماتي واهتماماتي في ذلك اليوم الذي تكتلت فيه جحافل المغتصبين أمام قامتها البهية؛ لقد أغلقوا مجرى التنفس عندها، وكتموا صوتها، ونهشوا لحمها الطري الغض. يومها قررت الذهاب إلى أحضانها حتى أكفكف حزنها، وأمسح دمعة تصارع مقلتيها.

أنا تجاوزت العقد الخامس من الزمن الذي قضيته في ربوعها. سرت وقامتي مرفوعة، ثابت الخطوات من بين جموعهم المتراكمة أمام بواباتها العتيقة؛ تلك البوابات التي يعبر التاريخ من خلالها، كما عبر الأبطال العظماء. سرت على بلاطها الذي سار عليه الصلاّح

والشهداء والعمّار والأولياء، والعلماء؛ مرت منه العيون والأفكار والأحلام، وزُرعت على جنباته الآمال العظام. هم يتكتّلون على درجاتها ويلتصقون على جدرانها كالبصاق المقزز. تلك الجدران التي تشي بهم إلى المرابطين فيها. هم يمنعون زهراتنا وفتيتنا وأعلامنا من المرور، وأنا من الذين لا يهتمون بوجودنا، إذ إننا عبرنا مرحلة الخطر عليهم كما يدعون.

لا بأس؛ دعهم يفكرون كما يشاؤون، أما وقد دخلت المدينة كما اعتدت دخولها، وسرت في ساحات الأقصى أتنشق الإيمان والنسيم العليل، وأرقب كل حركة من حركات المكان، هذا المكان الذي حفرت لمسته في صدري، ورضعت حبه ممزوجًا بحليب أمي، فأنا وهذا المكان في عناق أبدي.

كان على مسطبة الجنائز تابوت مسجّى فيه جثة امرأة قد توفيت في هذا الزمن الصعب. صلّينا عليها صلاة الجنازة. نظرت حولي لأرى الحضور؛ كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، وكنت أصغرهم سنًّا.

بعد الانتهاء من الصلاة، توجهت أنظار الجميع نحوي. في البداية لم أدرك معنى تلك النظرات، ولكنني ما لبثت أن أدركتها. كانت نظراتهم تدعوني للمشاركة في حمل التابوت، وبصعوبة كبيرة استطعنا أنا وثلاثة آخرين من حمله. سرنا به من المسجد الأقصى باتجاه باب الأسباط. كان الحمل ثقيلاً جدًّا عليّ. بعد دقائق معدودات، أخذت أجول بناظري لعل بعضهم يأتي فيقول: "آجر آجرك الله"، إلا أنني لم أسمع أحدًا يقولها لي، أو لأي من الرجال الآخرين الذين يشتركون معي في حمل الميت.

سرنا ببطءٍ شديد وبسرعة لا تزيد عن سرعة سلحفاة هندية. أخذ خشب التابوت بثقله يضغط بشدة على كتفي حتى تقرّحت، وبدأ الدم يسيل وأنا ما زلت أئن من تحته، وكانت حالة زملائي لا تقل معاناة عن حالتي. اتفقنا أن ننزل التابوت لنستريح، ومن ثم نكمل طريقنا، وهذا ما حصل.

كان المشيعون رجالاً عجائز لا يستطيعون حمل أنفسهم على المشي، وكنا نحن الذين نحمل التابوت أقوى الموجودين، فعُدنا

وحملنا التابوت من جديد لنكمل سيرنا نحو المقبرة. كانت المسافة التي تفصلنا عن المقبرة لا تزيد عن الألف ياردة، إلا إنني شعرت بأنها في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. كنا نسير باتجاه المقبرة، إلا أنها كانت تبتعد عنا كلما اقتربنا منها! كنا ننزل التابوت كلما شعرنا بدفء الدم يبلل القميص من تحت خشب التابوت الثقيل.

وصلنا أخيرًا إلى خارج الحرم، وكان بانتظار الجنازة مجموعة من الشبان الذين مُنعوا من دخول الأقصى بسبب أعمارهم التي لم تسمح لهم بالدخول حسب قانون القمع الصهيوني، ما إن لمحوا الجنازة حتى هرولوا تجاهنا، حملوا عنا التابوت وهم يقولون: "آجرْ.. آجرْ.. آجرْ.. رحمكم الله"، فقلت وأنا بالكاد أتنفس: "أجرنا وأجركم على الله".

درجات باب العامود

كدت أتنازل عن عادتي التي اكتسبتها من أمي، تلك العادة التي شربتها يومًا بعد يوم مع عشقي المتوالي للتجوال في البلدة القديمة. أذكر كيف كنت أعد درجات باب العامود درجة درجة. حفظتها غيبًا. تعرفت إلى مزايا كل واحدة منها، حتى أنني عرفت أسماء بائعات الخضار اللواتي يأتين من القرى المحيطة بالمدينة، وحفظت أسمائهن عن ظهر قلب. لا تنتظروا مني البوح بأسمائهن، فأمي حذرتني من البوح. قالت لي، ولن أنسى مقولتها تلك أبدًا: "احذرْ يا بنيّ من البوح بأسماء من تحب".

كانت درجات باب العامود تستوعب كل القلوب والأسماء والعيون، ولكنها ضاقت تمامًا عن استيعاب بساطيرهم. لم تحتمل نجاستهم. اشمأزّت من رائحة حقدهم المتوارث.

كنت أسمّي كل درجة من الدرجات باسم البائعة التي تجلس عليها. كن يجلسن موزعات كفرقة عزف كلاسيكية، تُشكلن لوحة سريالية بألوان فاقت إبداعات (دالي). كن يوزعن رائحة الخضار والفاكهة على عشاق المدينة بنسق دقيق، ويتعاملن مع السماء والهواء وعصافير الدوري بانسجام رائع، إلا أن أصحاب العيون الرمادية الحاقدة لا يعجبهم هذا الانسجام، ولا ذلك العزف الجميل؛ أخذوا يسحقون ببساطير الحقد كل الألوان، لتمتزج ألوان اللوحة تحت نعالهم فتصير لونًا واحدًا هو اللون الأسود.

هالني ما رأيت صباح ذلك اليوم. سحقتني دموع البائعات، ومزّقني قهر الرجال. تركت البائعات أماكنهن، وتقوقعن مرتجفات في زاوية السور كمن يحتمي بحضن أمٍّ حنون، لا حول لهن ولا قوة.

يومها قررت الكف عن التجوال في المدينة، وقررت وداع الدرجات وداعًا تملؤه الحسرة.

لملمت أعصابي، وحملت جميع متاعبي، وسرتُ، دون أن ألتفت خلفي، باتجاه حوش البسطامي. صعدت سلم البيت، واستلقيت على سريري المتواضع. كان الألم فظيعًا لأنني لا أعرف له موضعًا، فقد توزع على مساحات نفسي.

استيقظت في الصباح على صوت بائع الصحف معلنًا عن خبر جعلني أقفز عن السرير على أمل الحصول على صحيفة قبل نفادها. لقد رمم الخبر ما تهتك من نفسي المحطمة، وشفى قهري.

ارتديت ما كان في متناولي من ملابس، وهرولت مسرعًا إلى درجات باب العامود. تفقدتها درجة درجة، وبائعة بائعة، حتى وصلت إلى درجة كانت الصحيفة موضوعة فوقها بعناية وعليها حزمة ياسمين مقدسي، تلك هي درجة فاطمة.. الآن أستطيع البوح باسمها.

خبر عاجل

أَستيقظ قبل تثاؤب الشمس. أَتململ بين أفكاري المتدفقة وحيرتي وسريري العاري من وهج الأحلام. أَتناول كتابًا لا يزال قابعًا على يمين وسادتي. أُشعل فتيل رغبتي بقراءة ما تبقّى من رواية سكنت دفتي كتاب منذ عصر قياصرة الروس، ثم أغيب في حياة أخرى تاركًا وراء ظهري تلك المدن الغارقة بمستنقع الطغاة. أقرأ الصفحة الخامسة بعد المائة الثانية. تحدثني نفسي بميول كاتبها الاستسلامية، ولكن يستسلم لمن؟ بالطبع، لرغبات بناته الثلاث، فزوج ابنته البكر غالبًا ما يقضي وقته خارج البيت؛ في العمل، أو مع أصدقائه يتنافسون بلعب الورق، ولا يتبادلون الحديث إلا بين الحين

والآخر. هي تقضي وقتًا بين تحضير طعام صغارها الذين تكثر طلباتهم يومًا بعد يوم، ومداعبة جهاز البحث عن القنوات التلفازية. لا يستقر رأيها على قناة بعينها. قنوات تصور أحداثًا غير مألوفة؛ بركان من الغضب. صراخ ودماء ورايات حمراء وسوداء وصفراء وبيضاء. أضواء بألوان مختلفة وخطب وأصوات متداخلة. أفواج وحشود تتجمع في الميادين. تستقر على محطة تعرض محاورة سياسية بين متحاورين اثنين ومذيعة حسناء بالغت بتزيين نفسها، حتى تخالها تجذب انتباه المشاهدين أكثر من جدال محاوريها العقيم.

اترك الكتاب جانبًا. أُجهز فنجان قهوة سادة، فأنا أحبها بدون سكر، وأنا أظن بأن السكر يذهب طعم القهوة، فللقهوة طقوس؛ آخذ رشفة، أتذوقها بلساني، وأقلّب أفكاري، وبعدها أحزم أمري. أرتدي بنطالي الجينز، وحذائي الرياضي.

أتأكد من عدم نسيان آلة التصوير التي تصاحبني بكل جولاتي في البلدة القديمة، فأنا في كل مرة أنزل إلى القدس أحمل معي سعادتي وتعاستي، حزني وفرحي، إرادتي ويأسي، مللي وشوقي. أحمل أعباء

سنين من البؤس والخيبة، ولكنني أمشي على درجات الزمن الذي أراه متجليًا على قسمات الجدران التي عاصرت التاريخ. أسير بمحاذاة العيون القابضة على الدمع. لا تسمع أذناي سوى معزوفة تشدو بها أيام معدودات كنت قد عشتها في ظل أناس كالفراشات في رقتهم.

في هذه المرة سرت عبر أزقة تُركت عرضة للدخلاء. كانت أبواب البيوت مغلقة من الداخل، ويقف أمام بعضها رجال برائحة غريبة تشبه رائحة الخل، أيام كانت جدتي تضعه مع اللفت لصنع المخللات الذي تلونها باللون الليلكي، أما وجوه الغرباء فألوانها ليست ليلكية، إنما هي سوداء بلون الحقد المنبعث من عيونهم الرمادية.

سرت عبر عقبة الشيخ حسن في طريقي إلى عقبة الميلوية. كان يربط بين العقبتين زقاق آخر تكوّن بعد بناء مدرسة الميلوية، لا يزيد طوله عن بضعة أمتار، وهناك قرب المسجد، وتحت القنطرة المظلمة، لفت نظري مدخل حوش معتم، تنبعث منه رائحة الرطوبة التي

اعتاد عليها أنفي منذ نشأتي الأولى. دفعت الباب بهدوء لأرى إلى أين ينتهي هذا الحوش المعتم. كسرت العتمة بضوء هاتفي النقّال، وعبرت إلى نهاية الحوش.

حسبت أنني سأرى ساحة أو درجًا يؤدي إلى ساحة فيها بئر وشجرة نخيل تتوسط الساحة. هذا ما فكرت به، ولكن الحوش لم ينته إلى ما حسبت، بل وجدتني بين مجموعة من الأبواب التي تهرّأ لون دهانها، وأكل السوس أجزاء كثيرة منها.

سمعت خلف إحداها صوتًا مألوفًا، تبين أنه صوت (بابور كاز) يصدح بمعزوفة أعادتني إلى الوراء عشرات السنين. طرقت الباب طرقات خفيفة. لم أسمع ردًّا من الداخل، فأعدت الطرق عدة مرات بصوت أعلى، وكنت أصغي بين الطرقة والأخرى لعلي أسمع إجابة ما. زاد فضولي؛ قلت في نفسي: "سوف أحاول مرة أخيرة"، فطرقت الباب ثلاث طرقات بكف يدي. قربت أذني من الباب أكثر على أمل سماع إجابة على طرقي المستمر، إذ من غير المعقول أن لا يكون في الداخل أحد خصوصًا وأن (البابور) الذي لا يخفى علي صوت

اشتعاله. عدت وطرقت مرة أخرى. خُيل إليَّ بأنني سمعت صوتًا ممزوجًا بقحة مع ضجيج (البابور).

دفعت الباب بأطراف أناملي، وتسللت بنظري لأرى صاحبة الصوت المتحشرج. قالت لي وهي مطمئنة: "شو السيرة جاي اليوم بدري؟". في البداية استغربت كلامها، وفيما بعد، تبيّنت أنها لم تقصدني بسؤالها، إنما تقصد حفيدها محمدًا الذي كان يأتي لخدمتها مرتين في اليوم، وأحيانًا ثلاث أو أربع مرات.

كانت امرأة طاعنة بالسن. ربما عاصرت العثمانيين. لم أتبين ملامح لها، فقد غرقت ملامحها بين شقوق وتجاعيد سنين طويلة بطول القرن الماضي، وكان حفيدها محمد شابا فتيًّا يقدم المساعدة لجدته، وأحيانًا يدعو أقرانه لسماع بعضٍ من قصص الجدة العجوز. هي لم تفقد ولو قليلاً من ذاكرتها على الرغم من السنين. تحدثهم عن (السفر برلك)، و(وعد بلفور)، والتقسيم، ودير ياسين، وحزيران، و242، وتشرين، والليطاني و(سلامة الجليل)، و(أوسلو)، وكل الأسماء، تحدثهم عن كوابيسها، ومع كل خط من تجاعيد وجهها

هناك حكاية تشبه أساطير ألف ليلة وليلة، واليوم دون كل الأيام، جاء محمد يبحث عن مكان يجلس فيه بجانب جدته.

يهمس في أذنها، فتبتسم ابتسامة عريضة، لا يظهر بفمها سوى سن أمامي واحد لا أدري كيف حافظت على بياضه ومتانته. عجبت كيف اختطف محمد ابتسامة بهذه الروعة من وجه غمرته المأساة؟! تشوقت لمعرفة السر قبل أن أغادر هذا القبو عائداً إلى منزلي. أقلب أفكاري. لم أهدأ حتى استقر قراري على العودة إلى زيارة هذه العجوز، وهذا ما فعلته بعد خمسة أيام.

فوجئت عند وصولي، فالحوش المعتم تغمره الإنارة، والأبواب القديمة بُدِّلت بجديدة، والقبو خالٍ من العجوز، و(البابور) بُدّل بتلفاز. رأيت القبو قد اتسع بعد إفراغه من كراكيبها، وزُيِّن بألوان وردية. ثلاثة من الشباب يجلسون أمام أجهزة حاسوب حديثة، يمررون أصابعهم فوق لوحة الحاسوب بلياقة، وينقلون أفكارهم على صفحات (الفيس بوك)، ويستمعون إلى بث مباشر على قناة الجزيرة؛ خبر عاجل كل دقيقة.

رحلت العجوز قبل يومين، رحلت دون تشييع، ومحمد يجلس على كرسي خشبي إلى طاولة عليها حاسوبه الشخصي، الذي يتنقل معه أينما ذهب.

جلست ساعة بكاملها، لم أجد منفذًا للحديث. كان يشغلهم أمر جلل. لم أشأ التطفل عليهم، فحملت نفسي، ولملمت بقايا حيرتي، وأخذت أبحث عن مواصفات حاسوب أشتريه...

أبونا عيسى

أبونا عيسى، رجل عليه وقار السنين، قد عبثت خطوط الزمن بوجهه ويديه اللتين تقبضان بعزم على مقبض عصاه التي يتوكأ عليها بغدوه ورواحه. وجهه مشرق كإصباح بئر زيت؛ تلك القرية التي أخلص أبونا عيسى في حبها، فلم يغادرها إلا في رحلاته الإيمانية إلى القدس، يزور فيها كنيسة القيامة، ويؤدي واجباته الدينية، ويقفل راجعًا إلى خربة بئر زيت، كأنه قطع عهدًا أبديًّا مع تراب أرضه الأحمر.

كان يجلس على ركبتيه، يعالج نبتاته برقةٍ اكتسبها من نسمات نيسان التي تهفهف على أشجار اللوز والرمان، وتداعب أغصان

الصنوبر العالية. من هناك، من فوق رابيته، يطل علينا من البعيد البعيد بحر يافا بمائه الأزرق الصافي كالكريستال التشيكي الأزرق، والذي يبعثر ألوان الطيف بطريقته الفوضوية المحببة.

كان يجلس بين شجيرات الفول بنوعيه، ذات القرن الطويل وذات القرن القصير، وبين شجيرات البازيلاء الخضراء التي يشبه مذاقها العسل من شدة حلاوتها.

كانت لحيته البيضاء الناصعة، والتي تتدلى حتى منتصف صدره، تتثاءب بدلال كلما لامستها نسمة هواء مشاكسة. ابتسم لنا أبونا عيسى عندما حييناه. دمعت عيناه كجدول ماء يسير بين ظلال سنابل خضراء ملأى بالحبوب عندما عرف أننا من القدس وجئنا لزيارة ريفنا الجميل. دعانا لشرب الشاي، وأجلسنا على مقعد خشبي قديم يذكرني بمقاعد الدراسة الابتدائية. بدأ يحدثنا عن حبه لأرضه التي لا تزيد مساحتها عن عشر قامات طولاً وعرضًا. يصرّ على زراعتها في كل المواسم بالزيتون، والتفاح، والعنب، وبالبقول من فول، وحمص، وبازيلاء، كما زرع بعض شتلات من البندورة

والخيار والكوسا. يقضي نهاره بين نبتاته، وتراب أرضه الأحمر. رفيقته العصا وكنّته التي لم تنجب له الأحفاد بسبب عقم الزوج. المرأة التي ارتسمت على محياها سعادة العمل بجانب حَماها الخوري الجليل، الذي يشفق عليها كما يشفق على تراب أرضه من عبث العابثين، ذئاب الأرض الطامعين، الذين يحاولون النيل من كل بقعة متروكة. أبونا عيسى لم يترك أرضه يومًا واحدًا، ولم تتركه أرضه. فيها كل ما يريد من محبة، وثراء، وبهجة، وراحة بال، وفيها أحلامه تنضج يومًا بعد يوم، وفيها عزيمته وقوته وحياته، وفيها للشمس معنى الحياة، وفيها يتعانق الأفق مع الغروب، وفيها تتسامر الطيور فوق الأفنان، وفيها أبونا عيسى يبتسم ابتسامة عريضة تتسع لكل الآمال، وفيها تتحطم كل الأطماع، وتختفي كل الجدران.

عندما جلست مع (أبونا) عيسى شعرت لأول مرة في حياتي بأن الأحلام ممكن لها أن تتحقق، فماذا نريد من الحياة أكثر من زادنا اليومي، وجرعتنا في عشق الوطن، يتحول التراب إلى ماس ثمين بين أصابع المخلصين.

لم يحدثنا أبونا عيسى عن نفسه، ولم نسأله أبدًا. كان حديثه عن أرضه كأنه يتحدث عن معشوقته، فهي شريكته، ورفيقته، وملاذه.

سألنا عن أحوال القدس.. القدس حزينة، وحيدة، تتوق إلى تلك الأيام التي صنعت من ذكرياتها منارة انصهرت فوق خيوطها مشاعر الإيمان.

أُحضر الشاي بالنعناع الذي فاحت رائحته في المكان وامتزجت مع عبير أزهار اللوز والريحان ولسعة برد تداعب الجسد فيستسلم هانئًا بين أحضان الطبيعة الغناء. تناولت كوب الشاي وأنا ممتن لكرم الضيافة. نظرت إلى عيني (أبونا) عيسى فوجدتهما غارقتان في هم تنوء عن حملها جبال رام الله وتلالها. في البداية لم أشأ اقتحام خصوصيات الرجل، إلا إنني اندفعت بعد ذلك أسأله عن معنى تلك النظرة الحزينة التي تسكن بين مقلتيه. رفع نظره إليَّ مبتسمًا وقال:

- لقد فتقت جروحي يا بني.

- آسف يا سيدي لم أقصد إزعاجك.

- لا، بالعكس يا بني، أنت لم تزعجن بحديثك، بل رؤيتك جعلتني أتذكر القدس والأيام الخوالي، وأعدتني إلى مرحلة من حياتي ظننتها طُويت إلى الأبد. كنت ساذجًا عندما اعتقدت بأن الزمن كفيل بأن ينسيني تلك المرحلة.. ولكن، لا بأس في ذلك، فإن الذكريات مهما كانت، هي دليل حي على وجودنا. أنا سعيد جدًّا بوجودك هنا، فإنني أشمُّ رائحة القدس تفوح من أنفاسك.

قام أبونا عيسى عن مقعده الخشبي متوكئًا على عصاه. سار ببطء نحو زاوية الأرض الشرقية، فاستغلت الكنّة ذهابه بأن قالت:

- أبونا عيسى رجل فاضل، لكنه قاسى الكثير في حياته خصوصًا عندما تعرضت أرضه للمصادرة من قبل الاحتلال قبل سنوات ما جعله يترك الكنيسة الأرثوذكسية في القدس لإنقاذ أرضه، فقد كان على خطوات قليلة من رئاسة الكنيسة، إلا إنه آثر إنقاذ الأرض وتخليصها من براثن الاحتلال على منصبه، ذلك المنصب الذي يسعى إليه كل رجل دين في الكنيسة.

صرخ أبونا عيسى مناديًا لنا بالحضور إليه:

- انظروا إلى تلك الزهرة التي اكتسبت اللون الأبيض، لقد زرعتها قبل أسبوعين، وها هي قد أزهرت فما أطيب رائحتها! وما أجمل لونها الذي يميل قليلاً إلى لون السكر!

أبونا عيسى سعيد بزهرته. ظهرت عليه نشوة الانتصار. أبعد التراب عنها، وصنع حوضًا صغيرًا صبَّ فيه الماء بيد ترتجف من فعل الزمن، ثم تناول يدي برفق وأخذ يسير بي بعيدًا عن الآخرين. شعرت بدفء قلبه من خلال كفه الضخم. همس قائلاً:

- ما يؤلمني يا بني أن الزمن يمر سريعًا، والعمر يتناقص ولا يزيد. في داخله صراع بين الحياة والموت، والحرية والاستبداد، وجمال الأرض وقبح الاستيطان.

أضاف يقول:

- ها أنا اقترب شيئًا فشيئًا من نهايتي- هذا أمر الله-، وقلقي يتزايد لأنني لا أعرف من سيروي الأزهار بعد رحيلي الأبدي.

الأستاذ رؤوف

يجلس الأستاذ رؤوف كعادته إلى طاولته في المكتبة. يضع على عينيه نظارة بإطار شفاف تختفي بين معالم وجهه، ويستعين بها كلما همَّ بالبحث عن معاني المفردات في (لسان العرب).

لا أعرف كيف أبادره بالكلام، فهو متجهم، عابس، ذو نظرة حادة تضفي على وجهه الوقار والهيبة. كلما قررت التوجه إليه بالكلام، وجدتني أتقدم خطوة وأتراجع خطوات، ثم أقرر تأجيل الحديث معه إلى يوم آخر، عندما يكون مزاجه صافيًا.

أنتظر فرصتي بفارغ الصبر.

أرقبه من بعيد، وكلما أطلتُ الانتظار زاد ترددي. أنظر إلى وجهه المستدير، وعينيه المحاطتين بالسواد، ورأسه المشتعل شيبًا، حتى لون بشرته القمحية يبث في نفسي الرهبة بالبوح. إنه يطيل النظر إلى شاشة حاسوبه الشخصي. يخيّل إلي أنه صار جزءًا من الزاوية التي يجلس فيها كل يوم.

يأتي إلى المكتبة وبيده حقيبة سوداء فيها حاسوبه، وبعض أقلام، ودفاتر. يتناول كتابًا يبحث بين صفحاته. يتركه ويتناول آخر، وعندما يجد ضالته ترتسم على وجهه علامات الارتياح، فتخرج من بين شفتيه ابتسامة رقيقة تدل على فرحة غامرة. قررت انتظار فرصة كتلك التي يصل فيها إلى الابتسام.

انتظرت ابتسامة الأستاذ رؤوف لحظة بلحظة. ثماني ساعات انتظرته في ذلك اليوم. لم يطرأ تغييرًا على وجهه، بل كانت نظراته أحدّ من السيف. كدت أفقد رغبتي بمكالمته. يئست تمامًا من نيل فرصتي. سألت أمين المكتبة أن يُقدمني له، ورجوته بذلك، فقال لي:

– اذهب وتحدث معه بما تريد، فهو رجل لطيف.

هممت بفعل ذلك. تقدمت بخطى بطيئة باتجاه طاولته التي تتكدس عليها المراجع، إلا أنني عدلت عن نيتي عندما رأيت تقطيب حاجبيه، فعدت إلى مقعدي في الطرف الآخر من المكتبة، حاملاً خيبتي، ولكن اليأس تحول فجأة إلى إصرار من نوع ما.

أخذت قراري لمحادثة الأستاذ في اليوم التالي. عندما سألت نفسي عن السبب الحقيقي الذي يمنعني من التوجه مباشرة نحو الأستاذ ومحادثته، هل يعود السبب إلى حيائي من شخص الأستاذ؟ أم هو خوفي من ردي خائبًا؟ أم الاثنين معًا؟

في اليوم التالي، حملت نفسي، وجمعت كل ذرة من شجاعتي، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم توجهت بخطى ثابتة نحو طاولة الأستاذ. وقفت أمامه مباشرة، لكن لساني انعقد، ونسيت كل المفردات. قلت في نفسي: الآن عرفت الإجابة عن أسئلتي. لكن الذي أنقذني من هذا الموقف المحرج هو الأستاذ رؤوف نفسه عندما سأل عن حاجتي،.فسألته بحياء:

- هل لي بخمس دقائق من وقتك الثمين يا أستاذ؟

قال:

- تفضل، قل ما عندك.

- أنا محمود عبد الله. عمري ثمانية عشر عامًا. تركت الدراسة قبل خمس سنوات بعد استشهاد والدي في الانتفاضة. خرجت باحثًا عن عمل أكسب منه بعض المال لمساعدة أمي بتربية أخواتي الثلاث، وهذا الأمر لم يرق لأمي ولا لي، فقد كانت رغبة والدي قبل استشهاده أن يراني محاميًا قدّ الدنيا، لذلك فإنني جئت إلى حضرتك لكي تساعدني في دروسي، فلا مدرسة تقبل بي بعد أن تركت التعليم لمدة طويلة.

رماني بنظرة لم أدرك مراميها، ثم قال:

- وهل تملك تكاليف هذا الأمر؟ إن أجرة الساعة الواحدة عشرون دولارًا.

- أليس كثيرًا يا أستاذ؟

- هذا هو الثمن، فإن لم تستطع توفيره فلا داعي للدروس.

قال ذلك، ثم انكفأ على قراءة كتاب يسكن بين يديه.

سرت هائمًا، متألمًا، ساخطًا، مستغربًا؛ فهو على عكس ما وصفه الجميع! تُرى ماذا حصل للناس؟ أصابتني أوجاع في كافة أنحاء جسدي من رأسي إلى أسفل قدمي. شعرت بالتمزق في كل خلايا جسدي. اعتصر الألم قلبي، وأصاب الفزع عقلي. أين تواضعه الذي وصفه الناس لي؟ هل يمكن أن يكون الإنسان متكبرًا ومتواضعًا؟ بخيلاً وكريمًا؟ قاسيًا ولطيفًا؟ عالمًا وجاهلاً؟ أسئلة حيرتني لم تُسكن نفسي، بل أججت ثورة عارمة على المجتمع، فلماذا أنا بالذات الذي يتعرض للانتكاسات المرة تلو المرة؟ أين عدالة السماء؟ أين الرحمة؟

رجعت إلى البيت متأخرًا. لم أدرك أن الوقت قد دهمني، وخطف معظم ساعات نهاري وجزءًا كبيرًا من ساعات المساء. كان الهدوء مخيمًا. الجميع نيام. حمدت ربي أن أمي وأخواتي يغطون في نوم عميق. فتحت دُرج مكتبي المتواضع، وأخرجت صندوقي الخشبي الذي احتفظ فيه بجميع مدّخراتي. أخذت أحسب ما بحوزتي من مال. لم يكن جميع ما ادخرته كافيًا لأكثر من عشرين ساعة أدرسها مع الأستاذ رؤوف.

أنا أريد تحقيق رغبة والدي، فقد صار تحقيقها حلمًا لا يغادر تفكيري، وأملاً لا يوازيه أمل. أريد أن أصبح محاميًا، وأن يكون لي مكتبًا يطل على طريق واسع [مكتب المحامي محمود عبد الله]. سأدافع عن الأسرى والمظلومين، ولن يكون المال عقبة أمام أي مظلوم، بل سأكون نصيرًا لهم.

اليوم الخميس، وأنا أتفاءل كثيرًا بأيام الخميس، خصوصًا وأنه يسبق يوم العطلة الأسبوعية. خرجت من بيتي صباح ذلك اليوم، بعد أن ارتديت أجمل ملابسي، ولمَّعت حذائي، وأخذت بعضًا من دولاراتي.

سرت من باب الحديد إلى الحرم. مشيت تحت الأروقة باتجاه باب الغوانمة مرورًا بجانب باب المجلس. صعدت درجات عقبة صهيون باتجاه حارة السعدية مرورًا بعقبة شداد فالمئذنة الحمراء، حتى خرجت من البلدة القديمة عبر باب الساهرة متوجهًا إلى المكتبة. كان شارع صلاح الدين مكتظًّا بالسيارات، والناس، والبسطات المنتشرة على الأرصفة. اختلطت الأصوات فما عدت

أميز نداءات الباعة من منبّهات السيارات، ومن مكبرات صوت سيارات جيش الاحتلال الصهيوني، ومن صوت متظاهرين يستنكرون الحرب على غزة، ومن صوت سيارات الإسعاف. اختلط الحابل بالنابل خصوصًا عندما علت طلقات الجنود، فسكتت كل الأصوات، وامتزج الغاز السام مع دموع ودماء وأدعية رجال ونساء وأطفال وشيوخ. دخان وبصل ودموع، وزجاج مبعثر في كل المساحات، وحجار ورصاص، وعصي وبنادق وصدور عارية، وقمع وإيمان، وصراع ودفاع عن البقاء والخلود... كلمات وملاحم خلدت (أنكيدو)، على الرغم من طوفان الظلام. قتل وترويع، وأزيز أفٍ من الطائرات، قنابل بكل التسميات أسوأها ما يشبه العنقود، وما لا يوصف بالكلمات. طفل في العاشرة يتلوى بين هراوات الحقد، امرأة ترمي نفسها فوق الطفل فتأخذ نصيبها من اللكمات، تحاول تخليصه من أيديهم المسمومة.

تلمست طريقي محاولا تفادي كل العقبات. حوّلت مساري. رجعت أدراجي. دخلت شارع الرشيد. تسارعت خطواتي. كانت

المكتبة في مكانها، والأستاذ رؤوف في مكانه، والمراجع في مكانها، ورفوف الكتب تنتظر من يعبث بمحتوياتها، وأمين المكتبة في غرفته يشاهد على شاشة تلفازه الصغيرة طائرات اليهود تقذف بحممها على أهلنا في غزة.

سرت باتجاه الأستاذ. جلست بجانبه قائلاً:

- موافق يا أستاذ. متى نبدأ درسنا؟

- كل أحد وثلاثاء وخميس في تمام الثالثة عصرًا، فإن تأخرت عن الثالثة تفقد الدرس في ذلك اليوم وتدفع ما عليك من دولارات.

وافقت على هذا الشرط أيضًا بدون جدال أو مساومات.

يوم الأحد كان أول لقاء مع الأستاذ. الساعة الثالثة تمامًا. قدّم لي خطة دراسية أعدها مسبقًا. ساعة واحدة كاملة بدون كلل أو ملل. لم يقف لحظة واحدة. ستون دقيقة متواصل. كنت له ورقة بيضاء أخذ يرسم عليها بخطه الجميل، ويحفر المعلومة حفرًا في جدار قلبي. عشرون لقاء انتهت بسرعة الريح التي طارت معها دولاراتي.

اليوم الثلاثاء قبل الثالثة بخمس دقائق، جلست كعادتي بين يدي الأستاذ رؤوف والكتاب والقلم والدفتر؛ وقلقي ويقيني وإيماني. الثالثة تمامًا. سألني:

– ألم تنس شيئًا يا محمود؟

– لقد نفدت مدَّخراتي يا سيدي، إذاً لا درسَ اليوم.

عاد الأستاذ رؤوف إلى كتبه، وحاسوبه، وتقطيب حاجبيه، ولم يعرني التفاته، وعدت أحمل همومي، وحيرتي، وصراع أفكاري. تبعثرت لحظتها آمالي، كدت أنهار، فأنا ما زلت قبل منتصف الطريق بمراحل وحيدًا بين مطرقة وسندان. مرت أيام قاسية انقطعت فيها عن دراستي. كنت أسيرَ أفكاري وخيباتي، ولم يكن أمامي إلا البحث عن عمل ثانٍ. عملت في مطعم ساعات المساء. كنت أقف خمس ساعات متواصلة أغسل فيها الأطباق والأواني مقابل أجرة ساعة واحدة للأستاذ رؤوف.

عدت إلى دروسي مع الأستاذ رؤوف. حاولت جاهدًا أن لا أتأخر عن الثالثة، وعلى الرغم من الثمن الباهظ الذي كنت أدفعه

للأستاذ، إلا أنني بعد كل لقاء معه كنت أشعر بتقدمي أميالاً باتجاه كلية الحقوق. كان أمينًا بإيصال المعلومة إلى فهمي وإدراكي، وكنت أنظر إلي علامات الرضا في عينيه يوما بعد يوم.

استيقظت مبكرًا، فاليوم إعلان نتائج الثانوية، بل لم تغمض لي عين تلك الليلة. تقلبت على لهيب انتظاري. تعبث بي أفكاري العاصفة. أُحملق بصندوقي الخشبي الفارغ. أمرر ناظري على الكتب المستلقية فوق المكتب ثم أنظر إلى صورة والدي المعلقة بعناية وسط الحائط المقابل لسريري الخشبي. يخيّل إلي أنه يبتسم من كل قلبه هذه المرة. ساعات الليل بطيئة كأنها تسير مكانها مثل جنود الحراسة أمام أبواب السلاطين.

فجأة، وقبل أن يحين موعد الخروج من البيت، تملكني القلق، وأصابتني قشعريرة غريبة. خفت من المجهول، فماذا سيحصل لي لو أنني رسبت؟ أيذهب تعبي وسهري ووقوفي ساعات طويلة أمام المجلى؟ لم أجد الرغبة بمعرفة النتيجة، كومت نفسي في السرير، وأسدلت ستائري.

نهضت مذعورًا ارتدي ملابسي بسرعة خيالية. أريد معرفة النتيجة مهما تكون. أردت التخلص من براثن أفكاري السوداوية. تفقدت هاتفي النقّال، فوجدت عليه ثلاث مكالمات فائتة لم أدرِ ممن، ولم أعطِ بالاً للأمر، لكنه رنَّ مرة أخرى، فمن يا ترى يُصرُّ على محادثتي؟ كان في الطرف الآخر- ويا للمفاجأة- الأستاذ رؤوف. قال لي جملة واحدة لن أنسى وقعها في أذني:

- مبارك، لقد نجحت يا بطل.

عندها فقط تنهدت وتنفست الصعداء، ومن فوري أخبرت أمي وأخواتي فلم تسعهن الدنيا من شدة الفرح، ثم ذهبت من فوري إلى المكتبة، فوجدت الأستاذ رؤوف في مكانه، وعندما وقعت عيناه عليَّ استقبلني بابتسامة من وجد ضالته، وقال لي:

- اذهب من فورك للتسجيل في كلية الحقوق، فالمقاعد محدودة.

أطرقت رأسي بدون أن أتكلم، فأنا لا أملك تكاليف الجامعة. فتح الأستاذ رؤوف حقيبته السوداء وأخرج منها مجموعة من الأوراق قائلاً:

- هذا طلب الالتحاق، عبّئه وقدمه إلى دائرة التسجيل.

استغربت منه هذا الأمر. ذهبت من فوري، فاستقبلني موظف التسجيل بوجه مبتسم كأنه يعرفني منذ ألف سنة. ناولته أوراق التسجيل، فقدم لي وصلاً بمبلغ الساعات التي سجلها وبقيمة طلب الالتحاق. عجب الموظف من استغرابي فسألني:

- ما بك؟

قلت:

- أنت تعطيني وصلاً باستلام رسوم التسجيل والالتحاق وأنا لم أعطِك فلسًا واحدًا، ولا تريدني أن استغرب الأم؟

ابتسم قائلاً:

- لقد دفع الأستاذ رؤوف جميع الرسوم وأوصى بك خيرًا.

زاد استغرابي، فعدت إلى المكتبة حيث الأستاذ رؤوف. لم يكن موجوداً في مكانه. لأول مرة لم يتواجد الأستاذ رؤوف في مكانه، فقد التحق بعمله في كلية الحقوق التي صرت طالبًا فيها، وبعد أول محاضرة لي في الكلية كانت مع الأستاذ رؤوف، لم أنظر نحوه طيلة المحاضرة حياءً، وعندما انتهت المحاضرة، انفرد بي جانبًا ليقول:

– يا بني، أنا لم أدفع من جيبي فلسًا واحدًا؛ إنها دولاراتك التي احتفظت بها لك، كي تصبح محاميًا قدّ الدنيا!

مليحة

نظر إلى ساعته وقد بدا عصبيًّا، ينفث دخان لفافته كمدخنة قطار يعمل على الفحم. الوقت يمرّ، ولم يُكمل استعداده بعد، وتنقصه تفاصيل الخطة. مُنع من السفر إلى الأردن. كان عليه الاجتماع بالقيادة لوضع اللمسات الأخيرة على خطته التي يعمل عليها منذ شهرين. لم يجد من يأتمنه للسفر مكانه، حتى رائد الذي يشاركه العمل لا يستطيع إرساله، والزمن يمر سريعًا كهبة ريح غربية، فكلما مرَّ جزءٌ من زمن، تراه قد عصفت به الحيرة، وبعثره القلق.

- ما بك واجمًا كمن فقد أمه؟

سألته وهي تقدم له فنجانًا من القهوة السادة. لم يجبها، ولم يعطها التفاتة، فأعادت عليه السؤال مرة ثانية، وثالثة، وفي المرة الرابعة هزته من كتفه قائلة:

- "نصف الألف"...

عندها أجاب بانقباض شديد:

- لا شيء.. لا شيء يا عمتي.

- وكل هذا الوجوم! أنت على غير عاداتك هذه الأيام، فقد تغيرت طباعك، وذهب عنك مرحك، فأين حديثك الجميل، وقصصك الحلوة؟ أين ابتسامتك المشرقة؟

أشاح بوجهه عنها ولم يجبها، وهي بدورها لم تُثقل عليه، بل ذهبت لإحضار كأس ليمون بارد.

استيقظ مع خيوط الفجر الأولى. جلس متكئًا على وسادته محاولاً إنضاج فكرة راودته طيلة الليلة الفائتة، فقد وجد الشخص الذي يثق به، ولكنه يراجع الفكرة ويدورها برأسه؛ نعم، هي الوحيدة

التي أستطيع الوثوق بها، وفي الوقت نفسه لا تثير أية شكوك عند الأعداء.

وضعت أمامه طبق القش وعليه خبز الطابون، وصحنًا فيه زيت زيتون، وبيضًا مقليًّا على شكل عيون، وفحل بصل، وبندورة، وإبريق شاي بالنعناع. التفّ أحفادها حول المائدة. لم تستطع زوجته مشاركتهم الطعام، فقد كانت متعبة بسبب الحمل. لاحظت الحماة صهرها يأكل بشهية كبيرة، فاطمأنت بأنه عاد إلى نفسه.

قال لها:

- "إلك وللا للذيب" يا عمة؟

- "خسا الذيب".

- هناك مهمة لا أحد غيرك بمقدوره إنجازها، فهل جواز سفرك ساري المفعول؟

- نعم، ولكن، لماذا؟

- ستذهبين اليوم إلى عمّان. جهزي نفسك.

استغربت، ولكنها رضخت للأمر ليقينها بأنه إذا ما قرر أمرًا فإنه لا يتراجع عنه.

هو طويل القامة. ولد ليكون قائدًا بالفطرة. شديد ولين. حنون وقاسٍ. مرح وجاد. يقيس قبل أن يغوص. ورعٌ. لا يفوته فرض ولا واجب. يعيش لدنياه ولآخرته. كريم وحريص. سلّمها رسالة ملفوفة بإحكام، ووصف لها العنوان بدقة متناهية، وذكر لها اسم الشخص الذي ستقابله، وأوصاها بأن لا تخبر أحدًا بسفرها هذا.

هي حريصة. مليحة. رقيقة. عذبة كماء جدول يتسلل من بين رياحين الرياض. تزرع السكينة في من يجالسها. ذكية. صلبة في إيمانها. تمخر عباب الحياة مستعينة ببوصلة الوطن. تتحطم الأعاصير تحت أقدامها الصغيرة، وقد كانت ملاذه في معظم الجولات.

فوجئت برائد رفيق ثائر، يجلس بالسيارة نفسها المتجهة إلى الجسر. تجاهلته تمامًا، وتظاهرت بأنها لا تعرفه، وهو بدوره لم يحادثها.

توجهت إلى العنوان الذي حفظته عن ظهر قلب. أنجزت مهمتها، وباتت ليلتها في بيت ابنها في مرج الحمام إحدى ضواحي عمان، وطفقت عائدة في اليوم التالي إلى القدس، تحمل بين ثنايا ثوبها الفلسطيني المطرز رسالة، وبعض المال إلى ثائر.

سلّمت ما في جعبتها من أمانات إلى صاحبها، وعادت إلى حياتها كأن شيئًا لم يكن، أما هو فقد أكمل ما بدأ به بعد تسلمه توجيهات القيادة الأخيرة.

بعد منتصف ليلة خميس، طرق شديد على باب بيتها. لم تفقد ثباتها. وضعت شالتها على رأسها وأطلت من وراء ستارة، لتجد العشرات من الجنود المدججين بأنواع السلاح يحيطون ببيتها من كل جانب، يتقدمهم رجل أشقر ذو لكنة غريبة، يقف بجانبه مختار القرية.

- "مين انتو؟"

- "افتحي يا حجة، أنا المختار أبو متعب ومعي الكابتن أبو يوسف".

- "وشو بدكو بهالليل؟"

- "افتخ باب، اخنا جيش دفاع".

فتحت الحاجّة مليحة باب البيت ليندفع الجنود إلى الداخل، فيقلبون البيت رأسًا على عقب، وينثرون الطحين فوق العدس والأرز، ويخلطون المؤونة فوق بعضها، ويقلبون الفراش، ويخرجون الملابس من جوف الخزانة، والمختار يقف بجانب الكابتن الأشقر، الذي يرقب جنوده منتظرًا نتيجة بحثهم وتخريبهم. جاء أحد الجنود حاملاً بين يديه جوازات سفر من بينها جواز سفرها، وقدمه إلى الرجل الأشقر، ثم وضعوا الحديد بيديها الاثنتين، وسحبوها معهم إلى المعتقل.

- لماذا ذهبت إلى عمّان قبل أسبوعين؟

- ذهبت لزيارة ابني المريض.

- ليوم واحدٍ فقط؟ من قابلتِ؟ ما اسم الشخص الذي قابلتيه؟ أين ثائر؟

- أنا لا أعرف عن ماذا تتكلم، فأنا ذهبت لزيارة ابني والاطمئنان عليه وهذا ما حدث، ولا أعرف أين ثائر، فهو لا يقول لي أين يذهب. إنه يأتي متى يشاء، ويذهب متى يشاء، ولا أعرف عنه شيئاً.

- هناك من رآك في عمَّان وأخبرنا بكل شيء.

- أنا لا أعرف عمن تتحدث.

أحضروا رائد.

- هذه المرأة صعبة جدًّا، الظاهر أنها ستتعبنا معها.

أُحضر رائد ورأسه مغطى بكيس من الكتان، وصلت رائحة قذارته لأنف مليحة التي صرخت في وجهه:

- أنت أيها الكلب هل تعرفني؟ وللا شفتني؟ تفو عليك واحد رخيص.

تفاجأ رائد بردة فعلها عندما رأته، فارتبط لسانه عن قول أي شيء. أصابته دهشة لم يفق منها إلا على صراخ المحقق يأمره بالتكلم، لكنه خجل من نفسه أمام صلابة هذه المرأة التي بدت أمامه كالطود الشامخ، وخُيّل إليه بأن كل نساء فلسطين يتجسدن أمامه بنظراتهن التي اخترقت كل خلية من خلاياه، فارتفع الأدرينالين إلى أعلى نسبة مرة واحدة، ليتحول وجهه إلى اللون الأصفر الفاقع، حتى ليكاد يبول على نفسه، فلم يتفوه بحرف واحد، لكن المحقق تدارك الأمر بخبرته في تلك المواقف، فأمر بإبعاده فورًا من أمامها حفاظًا على ما تبقّى منه.

خمسة أيام بلياليها الطويلة أمضتها مليحة بين الزنزانة الضيقة المعتمة، وبأرضيتها المبللة بالماء، وجدرانها الباردة الرطبة، وبابها الحديدي الضخم، وأصوات مفاتيح ترن بأذنها، تمنعها من إغماض عينيها لحظة واحدة، فتحرمها النوم، وبين غرفة المحقق المجردة من الأثاث، عدا طاولة صغيرة يجلس خلفها محقق متجرد من كل إنسانية، ومعاونان يكاد رأس كل منهما يلمس سقف الغرفة،

ضخمان، يثيران الرعب في أقوى الرجال، فشعرت في داخلها بأنها من بقي على وجه الأرض في مواجهة هذا المحقق وأعوانه، وهي من بقي من نساء ورجال وشيوخ فلسطين تقف وجهًا لوجه أمامهم. أغاظتهم بثباتها وشكيمتها، كما أغاظتهم بثوبها المطرز بألوان الأرض الفلسطينية المزين بجذور التاريخ. لم يكن بمقدورهم هزيمتها على الرغم من هذا الحجم من التعذيب والقهر. خمسة أيام طويلة على المحقق أيضًا، نفد ما في جعبته من وسائل ترهيب وترغيب لاقتناص كلمة منها.

تغيرت وجوه المحققين مرات ومرات، وتنوعت الأساليب، ومليحة ثابتة لا يهتز لها رمش، خرجت بعدها، وبقي المحقق يجتر غيظه وخيبته، خرجت منتصرة، ولكنها متألمة من رائد الذي وشى بها، وبثائر الذي بقي مطاردًا إلى أن قضى شهيدًا في إحدى المواجهات. هي تعافت من آلامها عندما جلست وحولها أحفادها تحدثهم عن حكاياتها، فكانوا يستمتعون بتلك الحكايات التي تجعلهم يفخرون بجدّتهم وبأبيهم أمام الأطفال.

صاحب الكرة

شاءت الصّدف أن يكون منزلي مطلاً على مدرسة ابتدائية، نظّمت حياتي حسب جرس المدرسة. كنت أنظر إلى الساحة محاولاً التواجد إلى نافذتي قبل حضور الطالب الأول إلى المدرسة، وغالبًا ما كان الطالب نفسه الذي لا يزيد طوله عن سبعة أشبار، يلبس زيه المدرسي بكل أناقة، وعلى ظهره يحمل حقيبة من الكتان المقوى، منتفخة أوداجها من ثقل الكتب، والكراسات، وكرة يحشرها بصعوبة. شعره أسود قصير يلمع في ضوء شمس نهار جديد.

كان أول ما يصل يركن حقيبته على المقعد الحجري بعد أن يطلق سراح كرته لتجري فرحة في الهواء الطلق. يدحرج الكرة ويدحرج ويدحرج ويرميها في كل اتجاه منتظرًا من يأتي لمشاركته سعادته. كنت أرقبه وأتمنى أن أدحرج الكرة معه.

الصباح هادئ. الساعة السادسة والنصف. ما هي إلا لحظات حتى يلتئم شمل المدرسة بطلابها في ساحة إسفلتية واسعة جامدة لا حركة فيها، تخلو من أية حياة طبيعية، فلا أزهار، ولا أشجار تبني الطيور فيها أعشاشها. الجدران عارية، لا سلال للمهملات، فالساحة مكب لكل إبداعات الإهمال، وبقايا الطعام في كل ركن من أركانها.

الغربان وحدها التي تحافظ على نظافة المكان، فهذا الطائر الذي يتشاءم منه الناس وحده الذي يحافظ على الحد الأدنى من النظافة، أما رجال المستقبل فلا يأبهون لبيئتهم، ومعلمو المدرسة لا يراقبون مثل هذا السلوك! تمامًا مثلما لا يهمهم انتظام الطلبة لحظة عزف السلام الوطني وتحية العلم.

قبل الثامنة بعشر دقائق يصطف التلاميذ في صفوف نشاز، متهالكة، تنبعث منها رائحة الملل، لا طعم ولا لون لها، بانتظار اللا شيء. يعلو صوت أستاذ مبحوح يحاول الصراخ متحاملاً على نفسه، فلا يجاوز صوته فوهة مكبر الصوت الذي يمسك به بكلتا يديه المرتجفتين. صاحب الكرة، هو التلميذ الوحيد الذي يقف منتظمًا في مكانه، يضع يديه جانبًا كجندي متمرس على النظام والانضباط، ويقف في وسط الصف الطويل.

أحاول أنا جاهدًا أن أنام مبكرًا علني أسبق صاحب الكرة؛ هو إلى ساحة المدرسة، وأنا إلى شرفة بيتي. حاولت الاستعانة بمنبّه ساعتي، ولكنني كنت أستيقظ على صوت الكرة وهي تتدحرج، وعلى صوت أقدام صغيرة تتحرك بنغم يطرب شروق فجر جديد.

ثبتُّ منبه الساعة وتأكدت من التثبيت على الساعة السادسة والربع، وكنت عازمًا على التواجد قرب شرفتي قبل صاحب الكرة الذي هزمني في الأيام السبعة السابقة، وقبل انطلاق صفارة المنبه المنفرة، استطاع شعاع الشمس الذي عبث بعيني إيقاظي.

قفزت من فوري إلى النافذة ومن ثم إلى الشرفة. ابتسمت ابتسامة عريضة عندما لم أجد صاحب الكرة قد وصل. ها أنا استطعت أن أهزمه اليوم. اغتبطت على هذا الانتصار. جلست على كرسي في الشرفة أنتظر صاحب الكرة.

أحضرت لنفسي فنجانًا من القهوة الممزوجة بالهال، وأخذت ارتشف قهوتي وأنا مزهوٌ بهذا الانتصار. استيقظت زوجتي على رشفات قهوتي. جلست بجانبي ترقب معي وصول صاحب الكرة. وصل أحدهم وصاحب الكرة لم يصل! انتظرنا وصوله، لكن القلق حلّ مكان الابتسام، والغبطة حلّ مكانها الخوف! عُزف السلام بدون انتظام أي من المعلمين أو الطلاب.

زاد قلقي في اليوم التالي عندما لم يحضر صاحب الكرة. انتظرناه في اليوم الثالث، والرابع، والخامس، والعاشر.. انتظرنا وانتظرنا وانتظرنا. صار همّي أنا وزوجتي البحث عن خبر يطمئننا عن صاحبنا.

أنا لا أعرف له اسمًا أو وصفًا أو نسبًا. لا أعرف إلا إنه صاحب كرة الصباح الذي يلتزم الانضباط لحظة عزف السلام الوطني الفلسطيني.

أخيرًا، قررت السؤال عنه في المدرسة. وصفته لمدير المدرسة فلم يعرفه، ووصفته للمعلمين فلم يتعرف إليه أحد، وعندما سألت من هم في مثل سنّه تعرفوا إليه جميعهم قائلين إنه انتقل إلى مدرسة أخرى.عندها فقط عادت ابتسامتي، فصاحب الكرة قد انتصر عليَّ في كل المرّات!

حالة حب

تجول بين شجيرات الورد في حديقته الخاصة. كان يحصيهم وردة وردة. تسع شجيرات تحتضن الحلم، لكل شجيرة منها لونها الخاص وعطرها الخاص وإحساسها الخاص وتفتحها الخاص، ولكنها هي لا يضاهيها عطر ولا لون ولا إحساس. هي أجمل من كل الوجود، وهي التي تتحدى بسمائها كل العواصف، تقف شامخة لا يثنيها زمن. يعود ليحصي ورداته وردة وردة؛ الأحمر، الأبيض، الأصفر، البرتقالي. يعشق كل الألوان. يجمع الأوراق المتناثرة، ويضعها في وعاء زجاجي شفافٍّ يضعه على طاولة بين كتبه ليغازل حواسه الست عندما تمتزج رائحة الكتب بعبير أوراق حديقته. يغمض

عينيه فيراها أمامه متألقة بثوبها الأبيض، ووجه تسللت إلى خديه دمعة تذيب ضمائر الزمان.

سقطت الدمعة ساخنة على ظهر يده اليمنى، لم يجد لها أثرًا عندما فتح عينيه لينظر إلى ظهر يده. كان يشعر بحرارتها تحت جلده. حاول حكّ يده بأنامل يده اليسرى. كانت الحرارة تسير مع أوعيته كجدول يمر بين حقول القصب. بلمح البصر وصلت الحرارة إلى بؤرة قلبه، فنهض منتفضًا، وتناول قبضة من أوراق ورده، وخرج مسرعًا حتى وصل إلى رحابها فنثر ما في قبضة يده من أوراق الورد على درجاتها، وقفل عائدًا إلى حديقة منزله الخاصة.

نصف قرش

وقف أمام بائع (التمرية) يملؤه الحياء. يحمل بيده نصف قرش حصل عليه من والدته بعد عناء، ودموع، ورجاء، وتوسل مدة يومين متتاليين. كان يقبض على نصف القرش بيده الصغيرة التي التحمت بالمعدن، ووقف ينظر إلى البائع وهو يعطي الأولاد الحلوى بعد أن يستلم منهم القرش ثمن الحلوى.

اعتاد البائع الحضور إلى الحي يوميًّا بعد صلاة العصر. كان يقف على ناصية الشارع ينادي بأعلى صوته: "تمرية.. تمرية". كان زبائنه من جميع فئات الحي؛ نساء، ورجال، وأطفال، وبنات، يُحبون تمريته الساخنة المحمرة كوجنة عذراء يعبث بأحلامها عاشق.

بائع التمرية رجل جاوز الأربعين. طويل القامة. أسمر البشرة. صوته صاف رقيق اكتسب حلاوة وعذوبة حلوياته. يحمل على رأسه صينية التمرية، ويسند على ساعده الأيمن حمالة الخشب التي يضع الصينية عليها حين يقف. يلبس قميصًا أبيض ناصعًا، مثل الذي يلبسه الأطباء في مستشفى الهوسبيس في البلدة القديمة. الأطباء أيضًا كانوا يحبون التمرية، وأنا أكثر واحد يحبها، فهي لذيذة حلوة المذاق، وتسمع صوتًا لذيذًا وأنت تأكلها مقرمشة، يضعها في ورقة بيضاء، ويرش عليها سكرًا ناعمًا.

ما زال الصبي واقفًا أمام البائع ونصف قرشه يرقد بسلام في كفه المعروقة، وينظر إلى قطع التمرية وهي تتناقص شيئًا فشيئًا إلى أن نفد ما في الصينية من تمرية. سكت البائع فلم يعد ينادي، وعاد الصبي إلى بيته يحمل حزنه، وخيباته، ونصف قرشه.

بعد عصر اليوم التالي، صدح صوت بائع التمرية من جديد، ولكن الصبي لم يخرج إليه، بقي في البيت هو ونصف القرش ورغباته. وقف أمام صورة والده المثبتة على الحائط، وقد كُتب

أسفلها بخط أسود عريض "شهيد الأقصى". هو لم ينس يومًا والده، وكيف كان يشتري له كل عصر تمرية ساخنة مقرمشة، بعدها يذهبان معًا إلى الأقصى، يصلّيان صلاة المغرب، ويستمعان إلى درس الشيخ فتحي بانتظار صلاة العشاء.

لاحظت والدته وقوفه أمام صورة أبيه. ضمته إلى صدرها، وطبعت قبلة فوق جبينه ممزوجة بحرقة قلب فطر بنار القهر، ووضعت قرشًا كانت تحتفظ به لشراء خبز يومها، قائلة له:

- اذهب واشترِ لنا تمرية ساخنة.. ساخنة.

امرأة القرن

رائعة في كل حركاتها، وهمساتها، ونظراتها التي تعانق الأفق. أحلامها رقيقة كنسمة تتهادى فوق الروابي الخضراء. كريمة في أحاسيسها. صوتها عذب كصوت ناي يعزف عليها راع تصالح منذ أمد مع الزمان. قوامها مرسوم بعناية إلهية، مصقول كمرآة سحرية. عطرها أخّاذ يذيب النفس. طرية كالبلسم، تداوي بنعومتها ثقل الأيام. في ابتسامتها يولد جسد أنثى، ويولد العالم في صدري. هي امرأة العصر، مثلها لا يخرج إلى الحياة إلا مرة واحدة كل قرن.

لم يتردد قلبي لحظة واحدة من التعلق بها عندما سمعتها تتحدث أمام حشد من النساء تحثهن على التعلم وبناء قدراتهن. كانت واثقة،

تخرج الكلمات رزينة، وقوية، ورنانة، وغنية في معانيها. شديدة الحرص على نقل ما تؤمن به إلى مجتمع النساء في قريتها. كان أشد ما يؤلمها؛ المرأة التي تهمل تعليم بناتها، خصوصًا إذا كانت هي غير متعلمة. تقول لها: "لا تعتلي هما، فانا كفيل بمتابعة تدريسها".

أحبها كل من عرفها. نالت احترام الجميع. متفانية في عملها. تؤثر الآخرين عن نفسها. أنكرت ذاتها حتى خلتها ظالمة لنفسها. هي المرأة التي أحببت، وهي التي استطاعت تحقيق أبسط وأعظم أمنياتي. مضت السنوات الستّ كلمح البصر. جمعتنا المحبة والسعادة والحياة، ومضت كأنها ربيع لا ينتهي!

عدت إلى البيت بعد الظهر كعادتي لتناول طعام الغداء مع زوجتي. لم يكن لدينا أولاد، فقد كان حبي لها يفوق أي حب في الوجود. في تلك الظهيرة لم تعد أي طعام، بل كانت على غير عادتها واجمة حزينة سارحة في فكرها تنظر إلى الفراغ. كانت خائفة راجفة، قابعة في إحدى زاويا البيت تجلس عل الأرض ورأسها بين ركبتيها. لم تنهض من مكانها.

ترتدي فستانها الأصفر الذي ترتديه عند الخروج. نظرت إليّ بعينين ذابلتين دامعتين ينزل منهما خطين أسودين يسيلان على خديها، فتناولتُ منديلاً ورقيًّا لأجفف دمعها. لم تنبس ببنت شفة. نظرت إلى عيني نظرة فيها عمق مأساة. عندها ألححت عليها ورجوتها كثيرًا كي تخبرني بما حصل معها أثناء غيابي. في البداية لم تقل لي حرفًا واحدًا، ولكنها بعد أن تمالكت نفسها واستجمعت شجاعتها، أمسكت كف يدي وضغطت عليها بحنانها المعهود، وعادت إلى بكائها. أصابتها حشرجة، وسال دمعها غزيرًا لا شيء يوقفه. حرت في الأمر. لم أتمالك نفسي فبكيت على بكائها، ونهضت من فوري لأحضر لها كأسًا من الليمون المثلج الذي تحبه.

"هناك أمور تحدث بالرغم عنا، لم نكن نحسب لها حسابا، أمور ليست ضمن خططنا، ولا نخالها تدور في فلكنا. أحيانًا كثيرة نمسي بحالة، ونصبح في حالة مغايرة تمامًا، فلا تهتم يا زوجي العزيز لأمور الدنيا، فلا شيء يساوي لحظة حزن نستهلكها. نحن خرجنا إلى هذه الحياة عراة لا نملك من أمرنا شيئًا، وها نحن قد أعطانا الله كل ما

نحب، بل أكثر مما نستحق، وقد يصيب الإنسان أحيانًا بعض النكسات، ولكن المؤمن هو الذي يصمد ويتحمل السقوط لينهض أقوى مما كان".

كانت الزوجة تحدث زوجها كطبيبة روحانية خبيرة بأمور الحياة وفلسفتها، والزوج يستمع لها وعلامات الاستغراب تزيد وجهه شحوبًا، فهو لم يزل بلباس العمل، لم يحصل على خمس دقائق ليغتسل وليبدل ملابسه.

كانت ملامح الزوج دقيقة، له شارب خفيف يستقر تحت أرنبة أنفه الصغير، وكان شعره أسود قد تزيّن باللون الأبيض الذي أعطاه هيبة ووقارًا. قامته قصيرة لكنها قوية، فهو يمارس الألعاب الرياضية كلما سنحت له الفرصة بذلك.

هو عطوف محب لزوجته لدرجة التقديس. يعمل بائعًا في محل للأدوات المنزلية منذ أكثر من عشرين عامًا. كان يجمع القرش فوق القرش حتى استكمل تكاليف بيته الذي بناه بكده وتعبه على قطعة

أرض ورثها عن أبيه، وقد استغرق بناؤه خمس سنوات، حرما نفسيهما من كل متع الحياة، ليوفرا المال. لم يستريحا من بيوت الإيجار إلا عندما فرغا من بناء البيت قبل سنة.

عندما عدت من السوق في الحادية عشرة والنصف بعد أن اشتريت بعض الخضار، وجدت إعلانًا ملصقًا على باب البيت؛ كتب على ورقة بيضاء باللغة العبرية. نزعته عن الباب برفق وذهبت به إلى جارنا أبي محمود ليقرأ ما فيه، فهو يعرف العبرية التي تعلمها في المعتقل.

كان أبو محمود يقرأ ولا يترجم ما يقرأه، وعلامات الحزن ترتسم على محياه. كان ينظر إليّ بين الكلمة والأخرى، وكلما نظر إليّ، ازددت خوفًا وحيرة. لم يخبرني بمحتوى الكتاب. قال لي:

- "عندما يحضر زوجك أعطيه الكتاب وأفهميه ما ينص عليه".

لكنني رفضت ذلك بإصرار، وقلت له:

- بالله عليك أن تخبرني، ولا "تجعل الفار يلعب في عبي".

- إنه بلاغ من بلدية الاحتلال تطالبنا فيه بمغادرة البيت خلال أربع وعشرين ساعة اعتبارًا من ساعة استلامنا البلاغ، وذلك لتنفيذ قرار هدم البيت.

جفت الدماء في عروق الزوج وتصلبت عضلات وجهه، وبرقت عيناه. مرَّ شريط حياته سريعًا أمام خياله، من يوم أن ولدت فكرة بناء البيت وكيف بدأ بتنفيذ فكرته بمعاونة زوجته التي وقفت معه بصلابة، وكانت خير معين على تجاوز العثرات، وكيف كانا يدَّخران الأموال. صبرا على ضيم العيش، وسارا في نفق أدركا بأن نهايته إلى فضاء مضيء. تحمّلا مشقة الأيام، وباتا ليالي طويلة دون عشاء، ولبسا أخشن الثياب، حتى يوفّرا مأوى كريمًا لهما، والآن وبعد كل هذا العناء، وقبل أن يتمتعا ببيتهما؛ يأتي قرار الاحتلال بانتزاع أحلامهما من جذورها كما ينتزع الضبع قلب فريسته، لتقع جثة هامدة يتسابق الوحش على التهامها.

انتفض من مكانه. حمل بيده فأسًا، وتوجه من فوره إلى المطبخ. أخذ يحفر بأرض المطبخ حتى تكسر بلاطه، وأزال أكوام الحجارة

والحصا والرمل، ثم أخرج حزمة بلاستيكية، وأخرج حزمة أخرى بالحجم نفسه، وبعد ذلك أخرج حزمًا صغيرة بحجم كف اليد، ثم أخذ يزيل البلاستيك الذي كان ملتصقًا بعضه ببعض بعناية تامة، حتى ظهرت بيده بندقية (كلاشنكوف) قصيرة، وهكذا فعل بالحزمة الأخرى؛ إنهما بندقيتا (كلاشنكوف) ذواتا لونٍ فضي، وكان محتفظًا بذخيرتهما. أقسم بأن لا يدع أيًّا كان يقترب من بيته، وأنه لن يترك بيته فريسة سهلة لمقاصل الجزارين وشفراتهم المسممة. تحصن خلف نافذة غرفة نومه، وتحصنت زوجته خلف النافذة الأخرى، وخططا معًا على صد الأنذال كما تعاونا طيلة حياتهما.

تمترسا في مواقعهما وانتظرا ساعة الحسم، ولم يغادرا منزلهما منذ تلك اللحظة. كانا يتناوبان الحراسة خوفًا من الغدر. وضعا الأشراك التي تنبههما إذا ما اقترب أحد نحو البيت. انتهت المهلة المحددة فلم يأت أحد، ومر زمان آخر ولم يأت أحد، ومرت الأيام والأسابيع ولم يأت أحد، وبقيا في مهمة الحراسة. صارت زوجته تذهب إلى السوق لشراء ما يحتاجانه، واتفقت مع بائع الخضار المتجول بأن يحضر لها ما

يتبقى معه من خضار في نهاية يومه، فتشتريه منه، لتخزنه وتصنع منه مخللاً، ومن ثم تبيعه للجيران فذاع صيت إنتاجها، وتوسعت تجارتها بحيث غطت مكاسبها جميع احتياجاتهما، وهكذا فَعلا، لم يتركا بيتهما، بل صمدا مدافعين عنه بإيمان وإصرار، وما زالا ينتظران من تحدثه نفسه بالمسّ ببيتهما.

أكثر اخضرارًا

كان يحيى يكبرني سنًّا، وعلى الرغم من قصر قامته، فقد كان وسيمًا، يتميز بلون بشرته الحمراء، لطيف المعاشرة، قليل الكلام، لا يتحدث إلا عند الضرورة، لكنه شجاع، عنيد في حبه للقدس. كان يملك شاحنة كبيرة، استخدمناها في إحضار دواليب السيارات المستهلكة من واد الجوز، ووضعها في أماكن التظاهر، وكنا ننقل فيها المواد التموينية التي يتبرع بها الناس لإخوانهم في القرى والمخيمات.

أنجزنا مهمتنا، ثم افترقنا كل في طريق، هو إلى بيته في الصوانة، وأنا تدرجت إلى بيتي عبر باب الساهرة إلى حارة السعدية مرورًا بطريق المئذنة الحمراء إلى حوش البسطامي.

كان موعدي في ذلك اليوم مع رباب بعد الظهر. كنا نتقابل على ناصية شارع صلاح الدين، ونجلس في مقهى، نشرب الشاي، ونتحدث في خصوصيات الوطن. هي وأنا نكمّل بعضنا في عشق القدس. وقفت أمام المرآة التي كانت تشاركني الرأي في اختيار ملابسي؛ أأرتدي بلوزتي الزرقاء، أم أنها تفضل رؤيتي بالخضراء التي تنعكس على عينيها فتكتسب لونها الأخضر؟

كانت شمس أيار تعانق الحي بأزقته، وأشجاره، وأطفاله، ونسائه اللاتي وقفن على فوهات النوافذ يتبادلن أخبار الانتفاضة. في ذلك اليوم كانت الأجواء هادئة على غير العادة. اخترقت نفق نظراتهن وأنا أسير بخطى مسارعة حتى لا أتأخر عن رباب لحظة واحدة، وما كدت أصل الدرجات المؤدية إلى شجرة التوت، حتى رأيت مجموعة من خمسة جنود مدججين بالكراهية، يهرولون باتجاهي. لم أترك لنفسي القرار، بل آليت الهروب من وجوههم، عندما سمعت أحدهم يصرخ قائلاً: "bingo"، أخذت أجري دون التفات، وهم يجرون خلفي. عبرت من أمام المئذنة الحمراء، وانعطفت يسارًا عبر

عقبة شداد، ودخلت أول باب صادفته على يمين الطريق دار الدسوقي، وصعدت درجات السلم نحو السطح بلمح البصر، ثم قفزت من فوق الجدار للبيت المجاور- دار الدباغ، ونزلت بضع درجات، لم تؤد إلى منفذ آخر، فشعرت بنهايتي.

كان أمامي باب أزرق مغلق بسلسلة حديدية وقفل نحاسي، وفوق الباب نافذة زجاجية صغيرة تكسَّر جزء كبير منها، فيها فتحة بحجم كرة قدم.

التصقت بالجدار المقابل للباب محاولاً ضبط أنفاسي حتى لا يشعر بي الجنود. وقف جندي على حافة الجدار يملأه غيظ وحيرة. كانت بساطيرهم لا تبعد عني سوى سنتمترات قليلة. هم فوقي تمامًا. أخذوا ينظرون إلى الباب المغلق، ولم ينزلوا إلى الأسفل، لكنهم قذفوا أول قنبلة غاز من خلال فتحة الزجاج، ثم قذفوا ثانية، وثالثة، وخامسة. لم يكن بمقدوري تحمل الغاز وقد خنق أنفاسي، وأحرق عينيّ، إلا أنني لم أحرك ساكنًا، بل حاولت تنظيم أنفاسي، فأخذت أتنفس ببطء شديد.

دارت الأحداث في رأسي؛ كنت سعيدًا فأصبحت تعيسًا بين الحياة والموت. كنت متأنقًا فصرت مهلهلاً. أنا الآن وحيد أواجه آلة القمع الصهيوني بربع نفس، وبرجل عرجاء لا تقوى على حمل جسدي المتهالك، وأفكر برباب التي تنتظرني، ما تأخرت يوما عنها.

خلعت بلوزتي الخضراء وأخذت أمسح ما يشبه العرق والدموع. الدخان أبيض كثيف يرتفع تارة إلى أعلى، وتارة أخرى يهبط ببطء شديد، فيلتصق بالجلد والملابس، ويكوي الجلد، ويحرق العينين، ويتغلغل داخل مساماتي. كدت أغيب عن الوعي. أجفف عيني ببلوزتي الخضراء القطنية، بلوزتي التي تحبها رباب، والتي أرى لون عينيها فيها. الآن قد تبللت بدموع العذاب والقهر والوجع.

قلقت على رباب، وخفت من ألمها وحيرتها. شعرت بأن الحياة تغادرني وتقلعني من الأرض وتحطني فوق غيمة.

ضاق بي الكون. تملكني سكون غريب. سئمت الجدار، والسلاسل الحديدية، ودرجات السلم الحجرية، وحطام الزجاج،

ورائحة الغاز الخانقة. غبت إلى عالم مجهول. سبحت في فضاء أحلامي. شعرت براحة مفاجئة لم أعهد مثلها. تناهى إلى مسامعي أصوات أناس آتية من الحي، فأيقنت أن لا جنودَ في المكان، فصعدت الدرجات زحفًا على قدم ونصف باحثًا عن نسمة هواء خالية من رائحة الحقد. كان كل من في الحوش قد غادر مع أول موجة غاز مبتعدًا قدر المستطاع، وقد ظنّ الجميع بأنني قضيت. وصل الخبر إلى والدتي، وإلى رباب ويحيى، انتشر كالنار في الهشيم. أُغلقت الحوانيت، ولم يبق أحد في المدينة لم يسمع الخبر.

رأيت بأمّ عيني بعضًا من مراسم موتي. رأيت الدموع، والحزن، والوجوم، والحداد، ومنشورات الرثاء، ودعوات الانتقام. رأيت الحي يتحفز للانقضاض. لم أدرك كم من الزمن قضيت بين مأساتي ووخزات معاناتي. استهوتني فكرة الموت، فتركت لأحلامي العنان.

راودتني أفكار متلاطمة تشدني نحو المجهول. أحسست بمشاعر من حولي. شعرت بقيمة الشهادة عند الأحياء، وعند من أحب. وجدتها في عيون يحيى والثوار. ارتقيت بنشوة الشهادة، وسما بي

النصر أن أرى هزيمة الطاغية، وانتصار الحق. أريد أن أكون همزة الوصل بين الشهداء والانتصار. أريد أن أرى كم أنا غال عند حبيبتي. أريد أن يسمّى الحي الذي استشهدت فيه باسمي. أريد أن أرى كيف يستمر النضال على خطواتي التي سار عليها الشهداء وأنا، ولكن مهلاً.. فهل أنا حقًّا استشهدت؟

أحاول فتح عيني لأرى شعاعًا من نور، فهل هو نور القبر؟! أتحسس يدي بيدي الأخرى. أستطيع لمس جلدي. أنا أُحس جسمي باردًا في هذا اليوم الدافئ من أيار، ولكن من أين هذا النور؟ لماذا لا أشعر بالعطش، وليست لدي رغبة بالطعام؟ لماذا لون الأشجار مختلف عما عهدته؟ إنه أكثر اخضرارًا ونضارة. لا غبار في الأجواء ولا ضوضاء. سكون تام، لا يخلخله إلا صوت أمواج بحر وهي تصطدم بشاطئ بعيد، وإذا أمعنت بالإصغاء أستطيع سماع عصافير تشدو بعذب الألحان، وأسمع حفيف أوراق شجر تداعبها نسمة عشق إلهية، وخرير جداول ماء يغوص في أعماق القلب. تلك الأصوات تتناغم في معزوفة تسكن القلب وتهدئ النفس، وفي

البعيد البعيد أرى طيفًا يشبه رباب، ترتدي فستانًا أبيض، محلقة كفراشة ليلكية. أخذت أصرخ مناديًا:

- رباااااب.. ربااااااااااااااااااااااب.. رباااااااااااااب..

هي لم تسمع ندائي ولم تتجاوب مع إشارات يدي، ولكنها كانت تذرف الدمع مع كل مرة كنت أناديها.

تجولت بين ذكرياتنا عندما كنا نجلس أنا وهي وضوء القمر، نتبادل عناق الكلمات، ونحلق بأحلامنا الوردية، وننسج أُسرة فيها طفل، نسمّيه وطن.

صورة

سألتها وقد افترشت الأرض قرب مدخل باب العامود بخضار تبيعها:

- هل تسمحين لي بأخذ صورة لك بهذا الثوب الفلسطيني الجميل؟

ابتسمت قائلة:

- بشرط؛ أن ترسل نسخة لولدي الذي يدرس الطب في بلغاريا.

كلما لاح صباح

كلما لاح صباح؛ أجدني أحمل بعضًا من همومي، وأذرع الروابي بنظرة تصاحبها دمعة، تسألني تلك النظرة معاتبة:

- كيف هان عليهم التنازل عن هذا الجمال لأقدام الطغاة؟

أنا لا جوابَ عندي! تزداد همومي، فأرجع إلى غرفتي وأغلق ستائري؛ علها تحجب الرؤية عن ناظري.

الجدار

حاول أن يتماسك. ضغط على تدفق الألم الذي انبعث من بين أضلاعه المتوجعة. تسللت الذكريات من مسامات جلده. ذرف دمعًا حارًّا، كوى بلهيبه قلوب مواسيه. صُدم بما رأى وهو يحاول المرور عبر حاجز قلنديا العسكري. كانت زوجته وحيدة تحاول إقناع المجندة الإسرائيلية بالسماح لها بالمرور إلى الرصيف الآخر من الطريق؛ ذلك الطريق الذي قطعه جدارٌ بطول المأساة الفلسطينية إلى نصفين.

صرخ بأعلى صوته مناديًا زوجته:

- "يا جميلة.. يا جميلة.. ارجعي.. ارجعي".

يريد منها أن تعود قبل حدوث ما لا يُحمد عقباه، إلا أنها لم تسمع إذ كان الجو عندها مفعم بالغضب، والفضاء مليء بالحقد الصهيوني، وعيونهم الرمادية مثبتة على أفواه بنادقهم الأمريكية.

بكى بحرقة شديدة وهو يحاول لفت انتباه زوجته جميلة محاولاً إرجاعها. كانت المسافة بينه وبين زوجته مقدار الهواء المشبع بالألم، والرجاء، والغضب، والأمل، وأصوات القهر، وصدى الأوجاع الذي يفصل طرفي الحاجز الصهيوني. لم تسمع، ولم تسمع، ولم تسمع، وهو لم يكف عن الصراخ المصحوب بصوته المذبوح. هو يراها بأم عينيه، لكنها تبدو بعيدة.. بعيدة، وكأنها على الطرف الآخر من الكرة الأرضية.

جميلة وزوجها صالح أحبّا بعضهما منذ نصف قرن. كانت تأتي إلى بيت صالح تساعد خالتها- والدة صالح- في حلب الأغنام. كان لونها القمحي يجذبه إليها، فكانت تنظر إليه بتلك العينين العسليتين التي يشع منهما بريق يسحره كلما نظرت إليه من تحت طرف، تلك النظرة الخجولة التي كبّلته بقيودٍ لم يقدر على مقاومتها.

كان يحب وشاحها الأبيض المطرزة أطرافه بخيوط من الحرير الأحمر، وكان يسترق إليها النظر عندما تضع الوشاح على كتفيها ظنًّا منها أن لا أحد يراها، فقد عشق ذوائب شعرها المتدلية من تحت الوشاح الحريري. كان الوشاح ناصع البياض، وكان شعرها أسود كليل خاصمه القمر.

عندما تحضر إلى بيتهم كانت تأتي في الصباح الباكر مع شروق الشمس، وكان صالح يقفز من فراشه على وقع صوتها الذي كان يعبث بكل خلايا جسده فيوقظها خلية خلية، ويبقى صدى صوتها يرن في أذنيه بقية يومه، وكانت سعادته تكتمل عندما تطلب والدته من جميلة أن تضع في صرّته الزوّادة؛ خبزة طابون، وحبتي بندورة، وقرن فلفل حرّاق، وفحل بصل، وكمشة زيتون، وعبق من رائحة جميلة.

عندما ينتعل كل شيء ظلّه، كان صالح يجلس تحت شجرة زيتون يحمي نفسه من قرص الشمس اللهاب، يستمتع بطعامه، ثم يتناول شبابته ليعزف نغمًا صنعه خصيصًا لجميلة وهي لا تدري. لقد كان

كتومًا لا يفصح عن مشاعره لأي كان. تأججت أحاسيسه واتسعت مداركه، وصارت جميلة أهم أمنياته التي يحلم بتحقيقها، أما جميلة فقد عجزت عن إخفاء مشاعرها عن خالتها، فقد فضحتها عيناها عندما كانت تختلس النظرات نحو صالح، فتبتسم أم صالح تلك الابتسامة المخفية التي تعبر عن سعادة غامرة.

ورث صالح عن أبيه، والذي استشهد في أحداث البراق في البلدة القديمة من القدس في اليوم التاسع من شهر آب سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين، شهامته، وتصميمه، ومحبته لأهل بلده ووطنه، كما ورث عنه قوة البدن، وساعدين قويين يمكنانه من حرث الأرض، وجمع محصولها دون كلل. وجهه بيضاوي أسمر، ومربوع القامة، وعريض الكتفين، يعتز بشاربه الذي يشهد على رجولته المبكرة أمام أقرانه.

تزوّجا تملؤهما السعادة، وصارا حديث القرية. عمِلا سوية بأرضهما التي لم تبخل عليهما بعطائها أبدًا، ولم يغره بريق المال مثلما فعل الكثيرون من أبناء قريته عندما تركوا أراضيهم عرضة للخراب

والمصادرة، وذهبوا للعمل في بناء مستوطنات اليهود طمعًا في المال...!

ما زال يصرخ مناديًا جميلة بأن تعود ولا تجادلهم. إنها مريضة تحاول المرور عبر الحاجز للوصول إلى مستشفى المقاصد بالقدس، ولكن المجندة الإسرائيلية لا تسمح لها بذلك، وجميلة متوجعة تحاول إفهامها بالإشارة نحو كليتها فهي بحاجة لغسيل كليتها فورًا.

أُغلق الحاجز من طرفيه كليًّا. علتْ أصوات المركبات المكتظة أمام الحاجز، وتدافع الناس من نساء وأطفال وشيوخ وشباب، كل يلعن كل شيء؛ يلعنون الزمن، والحظ العاثر، ويلعنون التخاذل، وأوسلو، ومدريد، وكامب ديفيد، ومجلس الأمن، وحقوق الإنسان، ويلعنون يوم مولدهم ، ويلعنون القهر، ويلعنون اللون الأسود التي اتشحت به حياتهم، ويلعنون فضاء القهر المتسع...

جلس صالح عل طرف الرصيف واضعًا رأسه بين يديه، وقد كفّ عن الصراخ، فقد شعر بنبضه يتكاسل، وأخذ الدمع يتدفق من

عينيه مدرارًا. لم يلتفت إليه أحد؛ كلّ كانت أنظارهم باتجاه الطرف الآخر من الحاجز.

شاع خبر امرأة سقطت شهيدة هناك، وبقي صالح هنا جثة هامدة بلا حراك!

سنوات القهر

جبال من القهر تطبق على صدري فتحرمني لذة النوم، وسنوات طويلة فاقت سني عمري، هي بعمر أمي وأبي، نسميها نكبة!

محمد طفل لا يتجاوز عمره العشر سنوات، يقف بجانب مسجد الشيخ لؤلؤ وهو على يسار باب العامود في القدس القديمة من الداخل حوله حديقة جميلة، سمي باسم المجاهد المملوكي بدر الدين لؤلؤ الذي بنى هذا المسجد.

يستند محمد بجسده الصغير إلى سور المدينة. يحمل على ظهره حقيبته المدرسية. ينظر بعينين تشتعلان غضبًا إلى أفواج المستوطنين

المتدفقة عبر الباب إلى البلدة القديمة. لفت نظري هذا الطفل الذي يحمل مأساته، فجمعت شجاعتي، وتوجهت إليه علّني أخفف عن صدري بعضًا من القهر.

نظر نحوي نظرة فيها حسرة وقهر وعتاب، كدت أتراجع مهزومًا لولا أنه تدارك بالقول:

- إنهم يسرقون منا الهواء، فكيف لنا أن نتنفس؟ إنهم يسممون المدينة برائحة الكراهية والعنصرية. إنهم يتطاولون على مشاعرنا وأحاسيسنا. أنا مُنعت اليوم من مدرستي، فالمستوطنون يسدون الطرق بأعداد كبيرة، ويعتدون علينا بالشتم والضرب، والجنود يغلقون الطرق أيضًا، ويفتشون حقائبنا، ولم يسمحوا لي بالمرور، أنا قلق لأن مدير المدرسة حذّرنا من الغياب المتكرر.

قلت له:

- لماذا لا تذهب من طريق آخر؟

سرت معه عبر البلدة القديمة، وتسارعت خطانا ونحن نصعد درجات عقبة الجبشة حتى وصلنا إلى عقبة الخانقاة، ثم صعدنا باتجاه

الباب الجديد ومنه خرجنا إلى طريق (مندل بوم)؛ هذا الطريق الذي فصل القدس الشرقية عن جسمها الغربي قبل حزيران (1967)، ثم نزلنا باتجاه شارع نابلس.

محمد وأنا متعبان، خائفان، مصدومان، قلت له:

- لا تخف. تماسك. سوف نصل إلى مدرستك خلال دقائق.

زاد خوفي كلما مررت بمجموعة من الجنود بزي مختلف الألوان؛ الكاكي، والكحلي، والرمادي، رجال ونساء، وكثير منهم يلبسون (الجينز)، ونعرفهم من قبعاتهم التي خط عليها بالعبرية والإنجليزية "شرطة". أعدادهم كبيرة، وقاماتهم طويلة منتقاة بعناية، وأشكالهم رهيبة، ووجوههم عابسة. تجاوزنا آخر مجموعة منهم عندما وصلنا إلى مدرسة (الشميدت)، وبعد دقائق قليلة عبرنا من أمام مسجد (سعد وسعيد)- أنا لا أعرف من هما سعد وسعيد. بعد ذلك مررنا من أمام القنصلية الأمريكية المحاطة بعدد كبير من الحرس الخاص، بزيهم الأخضر الغامق، يحمل كل منهم بيده جهاز اتصال بحجم كف اليد، لا يتكلمون مع أحد، ولكن عيونهم تتنقل مع الخطى،

وتتحسس كل حركة من حركات الجسد. هم يجيدون عملهم، ولا يتدخل جنود الاحتلال بهم، بل يحاول الجنود الابتسام في وجوههم متى تقابلت العيون، ولكن الحرس لا يأبهون بتلك الابتسامات. يزرعون الشارع من حول القنصلية جيئة وذهابًا دون كلل أو ملل. ثم هناك مبنى جمعية الشبان المسيحية يقابله (ملعب المطران) الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى مرآب للسيارات، هذا الملعب الذي ارتدته كثيرًا أيام الجمع عندما كنت أتسلق الجدار الحديدي أنا وأصحابي لكي نشاهد المباريات، فلم تتوفر لي أجرة الدخول آنذاك، وكان حراس بوابة الملعب يحاولون الإمساك بنا وإخراجنا من الملعب بعد علقة ساخنة، إلا إننا غالبًا ما كنا نختفي بين الجماهير ونفلت بجلدنا، وأحيانًا كنا ننتظر انتهاء الشوط الأول لندخل بعد فتح الأبواب. هنا في هذا الملعب جرت مباريات كثيرة بين فرق الموظفين وبلاطة وحطين والخليل وجمعية الشبان المسيحية، وهنا كانت الأعراس الرياضية والمهرجانات التي يأتي إليها الناس من كل القرى والمخيمات والمدن، ومن هنا انطلقت المسيرات والتظاهرات والفعاليات الشعبية، وفجأة.. انتهى كل هذا ليبقى المكان فضاءً

لحرس القنصلية من جهة ولحرس مكاتب المحكمة المركزية من جهة أخرى.

أعادني محمد من مسرح ذكرياتي عندما سحبني من طرف قميصي قائلاً:

- انظرْ [مشيرًا نحو باب مدرسته]، هناك تقف سيارتا شرطة وجيب لحرس الحدود، وأمام المدرسة أكوام من الحجارة والدواليب المحترقة. لن أدخل المدرسة، فأنا خائف من الجنود.

- لا تخف، فهذا أمر روتيني يقوم به الجنود. ادخل مدرستك ولا تعطهم بالاً.

اقتنع محمد بكلامي على مضض. لم أدرِ أن نظرته كانت صائبة، وأنه كان أكثر حكمة مني، إلا عندما انقض عليه الجنود، قيدوا يديه خلف ظهره، واقتادوه إلى سيارة الشرطة الزرقاء، والضابط يصرخ في وجهه:

- لماذا وضعت الحجارة والإطارات المشتعلة في الطريق؟ أنت "مخرب"، وستلقى عقابك على ذلك.

لم ينبس محمد ببنت شفة، فقد كان يرتعد خوفًا من هذا الشرير. وُضع في سيارة الشرطة، وأُجلس بجانب النافذة وبجانبه جلست مجندة بدا عليها استهجان تصرفات الضابط، ففكَّت قيود محمد وربَّتت على كتفه تهدئه، إلا أن الضابط أخرج مسدسه من جرابه ووجهه إلى رأس محمد من خلف زجاج النافذة صارخًا بأعلى صوته الذي يهدر كثورة بركان "فيزوف":

- تكلم أيها الشقي، من قال لك أن تغلق الطريق؟ تكلم وإلا فجرت رأسك، تكلم...

بالَ الطفل على نفسه من شدة الرعب الذي تركه صراخ الضابط في قلبه، ما دفع المجندة بالثورة بوجه الضابط قائلة:

- "كفى.. كفى.. أنت غير طبيعي.. انظر إليه إنه طفل صغير، ألا تخجل من نفسك؟ إنك وحش كبير...".

قال لها:

- إنهم جميعهم "مخرّبون".

- لكنّه طفل لم يكن حتى موجودًا في المكان.

- ما أدراكِ أنتِ؟

انطلقت السيارة كالسهم تجاه (المسكوبية)، تحمل طفلاً في سن البراءة، والضابط مزهواً بانتصاره العظيم!

توجهت إلى مدير المدرسة وحصلت منه على رقم هاتف والد الطفل، والذي بدوره توجه مع أحد المحامين مباشرة إلى معتقل (المسكوبية). أُطلق سراح الطفل محمد بكفالة وتعهُّد من أبيه، لكنه لم يعد إلى المدرسة، ولم يستطع النوم من قسوة الكوابيس الليلية، ذاب الطفل، واضمحل جسده الصغير، صار منطويًا على نفسه فلا يجالس أحدًا حتى إخوته بسبب تبوّله اللاإرادي. لم يترك والده بابًا إلا طرقه لإخراجه من أزمته. احتار في أمره، وسقط من يده!

تحولت حياة الأسرة إلى جحيم لا يطاق، وقد تكرر غياب الأب عن عمله، والأم أنحلها البكاء وهدها الحزن وهي ترى ابنها البكر يموت ببطء أمام عينيها.

خَـوْبَـةٌ

نادر. لا أعرف إلا اسمه الأول، لكنني أعرف بعضًا من تفاصيل حياته؛ رجل في سن الثورة. مناضل شهم. شامخ بكبريائه، وإرادته، وعزيمته التي لا تنثني. قصير القامة. عريض المنكبين. لم يفقد كثيرًا من شعره الذي يميل إلى الحمرة، إلا أنه فقد كثيرًا من بريق عينيه العسليتين. يتحدث بروح الجماعة. لا يبرح موقعه النضالي. لم يبدل أيًّا من قيمه الرفيعة. كل أصحابه إخوة له، تجده عزوة لهم، لكنهم لا يتواجدون عندما يستصرخهم.

قُبض عليه بعد مواجهة دامية مع المحتل، وحكم بأكثر من مؤبد، ثم نفي إلى إحدى الدول الشقيقة. لم يطل فيها المكوث، فانتقل إلى

بلد صيفها شتاء وشتاؤها قارص، وبردها يقص المسمار. تعرَّف إلى ابنة عمه؛ فتاة جميلة، دمها مزيج بين العربي والفايكنغ. أنجبا ولدًا وبنتاً. لكن يد الأعداء أطول من كل المسافات، فلاحقته العيون، وتربصت به الدوائر والأقدار. لم يتهاون معهم، بل أصر على مواجهتهم بصدر عارٍ وإيمان لا يضاهى. وقف لهم بالمرصاد. كشف ألاعيبهم ومؤامراتهم الدنيئة، فلم يتحمل متنفّذو تلك البلاد، إذ أغاظهم نادر بثباته وصبره. استخدم كل وسيلة لفضحهم ولكشف القناع عن وجوههم، فزاد غيظهم ليصبح حقدًا يتأجج كنار مرجل. أمروه بالسكوت فلم يسكت، وأغروه بالمال فلم يضعف، وهددوه فزاد عناده، وتوعدوه فلم يرضخ. صبرٌ وقلق، كما زاد خوفه وحماسته. حشد حوله بعضًا من الذين ما زالوا يحملون تلك القيم الإنسانية. ارتفعت بهم معنوياته. أخلصوا له بعد أن خذله الأشقاء. فتحوا أمامه أبوابًا كان قد أغلقها الأعداء وأعوانهم. استمر في نضاله حذرًا من غدر الغدر، وبطش القهر، إلى أن جاءه مرسال يخبره بشدة مرض أمه، وبأنها على فراش الموت تتمنى رؤيته قبل الوداع. حمل خوفه وقلقه وشوقه إلى أمه، وقفل عائدًا لوداعها الأخير، ولم يدرِ أنه

يودع ابنته وولده الذي بدأ يحبو حديثًا وزوجته الجميلة، وبأنه لن يراهم مرة أخرى!

عاد من رحلة الآلام لينضم إلى عائلته، ولكنهم لم يسمحوا بدخوله، فقد كانت فرصتهم الذهبية التي استثمروها بكل براعة. حُرم من عائلته، وحُرم من استقراره، بل حُرم بهذا المنع من حياته، ولم يجد بُدًّا من الرجوع إلى عمَّان، فقد تكالبت عليه الهموم والخيبات والكوابيس.

تناول من جيب معطفه الجلدي البني مفكرته الصغيرة، وأخذ يقلب صفحاتها بعناية، ويقرأ الأسماء بتمعّن، وهو يرسم في رأسه خطة وخطة بديلة وخطة ثانوية؛ "اليوم بتصل بأبو إبراهيم وأبو الوليد وأبو مهند، وبكرة أتصل بعبد الله وعبد الكريم وعبد الرحمن وعلاء الدين، وبعدها بتصل بخليل ورمزي وعيسى وسليم أنا متأكد بأنهم لن يخذلوني"!! ولأول مرة يكتشف بأن مفكرته عاقرٌ، فالأرقام غير صحيحة في معظمها أو ناقصة رقمًا هنا ورقمًا هناك، عندها فقط أدرك حجم المصيبة. حاول الحصول على أرقام أصدقائه

الصحيحة ممن كانت أرقامهم صالحة، ثم أدرك بأنه يغرق في خضم بحر من المجهول ليس له قرار، وبأن رقمًا يستطيع إنقاذه من الغرق. ازدحمت الهواجس والوساوس في رأسه الصغير، حتى كاد ينفجر همًّا.

وصل باتصالاته إلى كل الأندية؛ نادي الأسير، والشهيد، والثائر، والمعتقل، والسعيد، والحزين، وكل المحافل والمنتديات، والساحات الأردنية، واللبنانية، والسورية، والمصرية، والخليجية، وإلى كل التسميات والألقاب. تراكمت الوعود، وراحت مشاعره وأفكاره بين مدٍّ وجزر.

نفدت نقوده القليلة، ومع نفادها بدأ صبره يضمحل ويذوب.، ترك فندقه المتواضع وسكن هو وهمومه وخيباته وكوابيسه وأحلامه وطموحاته وكمده وبعضًا من كآبته في قبوٍ تحت بناية من العهد البائد. لامس بؤرة العذاب، عندما لم يجد من يمد له يد العون. تمرّ عليه الأيام والليالي دون كسرة خبز يسد بها آلام معدته الخاوية إلا من القهر، ولكن بعض من كانوا يومًا مشاريع شهادة هم وحدهم

الذين تقاسموا معه الهم والسجائر وأحيانًا كسرات الخبز. اتحدوا في حزنهم وقهرهم مثلما اتحدوا في محبتهم لفلسطين، فما كان في أياديهم حيلة لمساعدة أخيهم نادر، لا مال، ولا جاه، ولا عزوة. تخلت عنهم الحياة، وتركتهم خلفها يجترُّون عذاباتهم، أما نادر فقد زادت همومه قناطيرَ مقنطرة بعد أن عاش معاناته ومعاناتهم.

تساوى في قبوه ليله ونهاره. لم يعد ينتظر فنجان قهوة يرتشفه ساخنًا. لا ونيس له معظم الوقت إلا بعض دموع تتسلل بصعوبة عبر كبريائه. كان القبو باردًا ورطبًا وموحشًا كصحراء غاب عنها ضوء القمر، فعبثت بظلمتها الشياطين. تواردت إلى مخيلته أفكار تشبه الوساوس والهذيان. أرسل رسائل، وكتب عرائض، وتشبث بوعود باهتة، فهو الغريق، وهم على ضفة الميناء بدواليبهم المطاطية، وياقاتهم المنشية، تتقاذفه أمواج البؤس وبرودة تجاهلهم التي زرعت بنفسه غصة لا تحتمل. لقد سرقوا منه الأمل وسلبوه الابتسامة.

يحاول جاهدًا أن لا يفكر بأسرته التي تنتظره في الطرف الآخر من الكرة الأرضية، فقد ترك هناك ابتساماته وضحكاته، وخطوات

ابنه الأولى، وحُرم من وجه زوجته المشرق كإشراق شمس نيسان الدافئة.، ترك خلفه الأمل المزروع في أحرف كلمة "بابا" التي بدأت ابنته النطق بها حديثًا. تلك الذكريات تمزقه إربًا، وتجلده بسياطها، فلا يجد في عتمته منفذًا لبصيص أمل، فيوجعه الحنين كما يؤلمه نكران الوطن.

استند على طاولة تقاعدت من الخدمة منذ زمن بعيد، واضعًا رأسه بين كفيه الخشنتين، محاولاً وضع حلول جذرية كما اعتاد أن يقول لمحدثيه، فهل يستمر بالبحث عن عمل يوفر له المعيشة في هذه الغربة المتداخلة؟ أية معيشة يعيشها بعيدًا عن أسرته بعد أن أُبعد عن وطنه قسرًا؟ وأية حياة يعيشها في ظل معاناة قُذف إليها من قمة الهزيمة؟

قرر البحث عن خيارات منطقية. على كل حال هو لم يجد عملاً مناسبًا أو غير مناسب، حتى هذا لم يكن بالأمر السهل. توجه إلى السفارة، وإلى مقرات الحركة، والتنظيم، والدوائر الرسمية، وغير الرسمية، وتكررت الوعود، والتسويفات، والابتسامات الصفراء

والسوداء والحمراء، وفي بعض الأحيان قوبل بوابلٍ من دموع التماسيح، التي قصفت عظامه فهشمتها تهشيمًا!

"آه.. لقد بلغت الروح التراقي.. لم يعد بالإمكان تحمّل الذي كان، فقد فقدت كل شيء، ولكنني أخاف أن أفقد ظلي. لقد فقدت جزءًا كبيرًا من حلمي، ولا أريد أن أفقد بقية حلمي. يا الله.. أنا كفيل بأعدائي، فنجني من أصدقائي".

حمل جواز سفره الأخضر، وأخرج قميصًا كان قد احتفظ به في حقيبته منذ نفيه من أرض الوطن، وقرر أن يحتفظ بما تبقى من كرامته، فاستقلّ سيارة قائلاً لسائقها الكهل:

- "اذهب بي إلى جسر الملك حسين من فضلك".

غيـرة

أنتَ.. لا تنفكَّ تكتب عنها في كل المناسبات.. لا تترك صغيرة ولا كبيرة.. فهل هي أجمل مني؟ أرقُّ مني؟ أحنُّ مني؟ أدفأ مني حضنًا؟ أوسع مني قلبًا؟

أجبتها: هي محرابي، وضماني، وسمائي، شوكها جوري وياسمين، وأنا أحبها أكثر من نفسي!.

ماتوا بغيظهم

أرادوا قتله، فتثلمت سكاكينهم.

أرادوا نفيه، فعانق صخور الجرمق.

أرادوا كتمه، فأخرستهم قصائده.

أرادوا مصادرة وطنه، فتشبث بظله.

أرادوا وأد أفكاره، فحطم سجنه.

أرادوا طمس تاريخه، فنبتت بذوره وردًا وياسمينًا ونخيلاً.

أرادوا قهره، فماتوا بغيظهم!

"وأعدوا..."

غادر سريره مع خيوط الشمس الأولى. نظر عبر النافذة فلم يجد الرعيان، ولا أغنامهم السوداء التي تطال بأرجلها كل شيء. لا نباح لكلابهم ولا مضارب لخيامهم. جدار بطول القهر يمنعهم من الحياة.

قفل عائدًا إلى سريره يحاول عناقه. فتح مذياعه ليسمع عبد الباسط بصوته الرخيم يتلو:

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...}

أغمض عينيه، وراح يغط في نوم عميق.

أولويات

تتزاحم الأفكار في بضع رأس بقيت بعد أن أذهبت به تلك الخيبات المتلاحقة. رتبتُ تلك الأفكار بحسب أولوياتها، وكلما وضعتُ إحداها على رأس السلم، تجدني أضع الأخرى قبلها وقبلها وقبلها.

إذًا، جميع تلك الأفكار هي أولويات، ولكن حياتي وحدها التي لم أجد لها مكانًا على ذلك السلم الوهمي، فذرفت دمعة على تلك الحياة، وأعلنتُ الحداد لمدة ثلاثة أيام متتالية.

نعيق

كيف لي أن أتلمس حروف الكلام في يوم عزّ فيه الخطاب؟!

صحوت قبل الفجر على نعيق غراب. تلمست بندقية الصيد خاصتي، وخرجت أبحث عن مصدر الصوت. لم أجد غرابًا، بل لم أجد غصنًا، أو عامودًا خشبيًّا، أو سلكًا من الضغط العالي يقف عليه طائر شؤم.

عدت إلى سريري ألعن ذلك الصوت الذي سكن رأسي. حاولت استحضار النوم فلم أنجح. تطاير النعاس، وذهب العقل، ولكن ذلك النعيق ما زال يدوي في رأسي.

تسللت خيوط الشمس إلى مخدعي، لكنها اليوم خيوط باهتة لا لون لها ولا دفء، والصوت يصرخ في رأسي، لم يهدأ لحظة واحدة. تقلبت مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار، وأخرى على ظهري، أو على بطني. استنفدت كل الاحتمالات. لم أفلح بالهرب من ذلك الصوت البشع. كرهت الطيور، وكرهت الليل، وكرهت شعاع الشمس الباهت، وكرهت كل معاني السكون. هي دقائق قليلة مرت، خلتها دهرًا من الزمان. تُرى، ما مصدر هذا الصوت القبيح؟ ربما هو صوت الضمير؟ أو صراخ خيبات متلاحقة، أو هو صوت اليأس، أو التخاذل، أو ربما هو صوت الكآبة، لا أدري، ولكنني أدركت في النهاية بأن معاناتي لا تختلف عن معاناة تلك الأم التي فقدت ابنها لحظة اجتاح جنود الاحتلال مخيمها ليلة الأول من رمضان، كانت تجهز له طعام السحور بانتظار عودته حاملاً أرغفة من خبز الطابون الساخنة، لكنه أتاها محمولاً على الأكتاف، حمل لها مقدارًا من الهم لا تتحمله الجبال. أتاها هكذا دون قصد منه. تعالت أصوات البنادق التي علا صوتها على نعيق الغربان، فلم أعد أسمع نعيقًا. تناولت من جديد بندقيتي، وقررت التفرغ لصيد الجرذان!

الكوَّة

قُبيل الفجر استيقظتُ على هديل زوج من الحمام، كان قد بنى عشه في كوة غرفتي. تفاءلتُ كثيرًا بهذا الصوت.

رفعت الغطاء عن جسدي الذي تكور كجنين ينتظر خروجه الأسطوري إلى رحم الحياة. أصابتني لسعة برد الفجر المقدسي. ارتديت ما طالته يداي من ملابس خفيفة. أخذت أدندن لا إراديًّا بنغم سمعته لا أذكر أين، فرقص ما بين الضلوع طربًا على الرغم من التعب والإجهاد، فقد سهرت حتى ساعات الليل المتأخرة، فأجواء رمضان هنا تسلبنا الوقت، وتنهبه نهبًا.

أخذتُ عن غير قصدٍ مني أصيخ السمع لحديث زوج الحمام، فقد كان في حديثهما الجدة والوقار؛

الذَّكر: "لم أعد أسمع القرآن، ولا الأذان، ولا قرع النواقيس مثل أيام زمان".

فتقول الحمامة والحسرة تملأ حديثها: "إيه يا زوجي العزيز، ليس هذا ما حُرمنا منه فقط، أنا لا أجد مكانًا أوسع من هذه الكوة أبني فيها عشنا فقد اتسعت العائلة، ولم تعد الكوة الصغيرة هذه تفي بالسكن، حتى ساحات الأقصى حُرِّمت علينا بعدما صارت مرتعًا لجحافل المستوطنين الذين دنّسوا بلاط المسجد بأقدامهم الخبيثة".

قال الذكر بصوته الأجش: "يا زوجتي، نحن في حالة لا تختلف عن كثير من المخلوقات المستهدفة في هذه المدينة التي بارك الله حولها، نحن في هذه الكوة ما دامت هذه الكوة موجودة. كثير من الناس ومنهم صاحب هذه الكوة تحمّلوا قمع الطغاة، الذين يريدون تدمير كل أشكال الحضارة والإنسانية في هذه المدينة، سنبقى في كوَّتنا نستأنس بناسها".

"أنا معك يا زوجي العزيز، لنصلِّ للفجر ولنكثر الدعاء...".

موجـة

قُضي الأمر؛ ما عدت أسمع تلك الأصوات الكثيرة التي دهمت سكوني وصمتي، فتحررت من بقايا أضغاثي، وذهبت وساوسي. لم يكن أمامي من خيار آخر غير هذا، شحذت سيوفي بعد أن أخرجتها من أغمادها. لن أعيدها إلى صمتها. أشهرتها فانقشع غبار العواصف مرة واحدة، وبانت السماء زرقاء صافية لا تشوب ألوانها شائبة، تتوسطها الشمس بجمال حالاتها، دافئة.. مضيئة.. بهيّة.. كبهاء وجه نيسان، ما عدت أتلعثم بحرف من حروفها.

اتّقيتُ.. صبرت.. تحملت رائحة العفن، سلَّكت مجاري القذارة بيدي العاريتين. ليلي بارد، وبراكيني مراجل نار تصهر نومي. نعم،

لن أضع سيوفي في أغمادها بعد اللحظة، سأجعل أسنّة رماحي تلمع في وجه من تسوّل له أحلامه بالعبث بأشيائي.

لملمت ما تبعثر مني في أيار، وفي حزيران، وأيلول، وتشرين، وكانون، وأسلو، ومدريد، وريكيافك، وواشنطن، وواشنطن، وواشنطن.. لن أجلس منتظرًا طعام الغداء أو العشاء. لن آبه بمدفع الإفطار، ولكنني بانتظار مدافع الفجر؛ الفجر الآتي من البعيد البعيد.. الآتي مع موجة تعانق رمال عسقلان.

وَفّر قلبك

يحاولون مواساتي قائلين والدمعة تكاد تقفز من مآقيهم: "لا تجلد نفسك بهذه القسوة من أجل الآخرين.. لن ينفعك أحد منهم إذا- لا قدَّر الله- أصابك مكروه. لا تفقد عقلك. أنت مهم لنفسك. لست ضروريًّا لأي أحد سواك. لن تُعدم وسيلة الحياة بعدك. هم سيتذكرونك أحيانًا في فضلات أوقاتهم.

ربما يعلنون الحداد على فراقك يومًا أو بعض يوم. يذرفون بعض الدمع، وفي عزائك يكملون نكاتهم وقهقهاتهم، ولن يأبهوا بنظرات تحاول ثنيهم عن غيهم. لا تظن أن الحياة تنتهي بغيابك القسري أو الطوعي، فالزمن يستمر، والفصول تتوالى، والأيام تحمل في طياتها

تاريخًا جديدًا، وأحلامًا جديدة، وأحفادك الذين هم من صُلبك، والذين تصارع من أجلهم الحياة التي تنهشك بأنيابها الفولاذية، لن يتذكروا حتى ملامحك البارزة، لن يقرؤوك، ولن يزوروا قبرك، سيأكلون من كَرْمك، ولن يقرؤوا على روحك "الفاتحة"، ولن يموتوا جوعًا على فراقك، فلا تخف عليهم بهذا المقدار، ولا تتوجع عند رحيلك.

نمْ مطمئن البال، واركن عصاك في زاوية المكتب، وتكفّل بنماء ذاكرتك، وصادق قلمك، ومكتبك، وأوراقك، وكرسيّك الخشبي الذي ورثته عن أبيك، والذي شهد ولادة قصائدك الملحمية، وانثر رياحينك الخضراء بين الثريات، وأنت بكامل لياقتك الفكرية، وذوقك الفطري سافر بين أبجدية الكلمات، وانسج لنا غطاءً سميكًا يقينا لسعات الهواء الغربي.

الدَّينُ.. قاهر الرجال

أولم تكن في ربيع الحياة؟ أولم تسر سيرًا رتيبًا؟ ضحكت وعبست. سعدت وتعست. عشقت اللون البنفسجي. استسغت البرد والحر. تكيَّفت مع السواد والبياض. خضت حروبك بعزم وإرادة وتصميم. انتصرت تارة وهُزمت طورًا. لم تستسلم للهزيمة، كنت تنفض غبارها وتبدأ الاستعداد من جديد، تبدأ أقوى مما كنت، تبدأ بثوب نظيف وقلب أكثر احمرارًا، وعشق متنام، وصدر يتسع لكل التضاريس، فقلبك مثل حلمك، مثل ظلك، مثل عشقك، ربيع في ربيع في ربيع، فما بك الآن وقد تملكتك براثن الكآبة، وسيطرت عليك وساوس وكوابيس وخزعبلات، أضعت حكمتك

ورميت بنفسك في قبو لا قرار له، مظلم، وضيق، تسكنه عفاريتك الوهمية، وحشرات العتمة، ورائحة الرطوبة؟

قُل لي بربك ولا تخفِ عليَّ: هل تشكو من مرض لا علاج له؟ هل عدمت الوسيلة في التكيّف مع ظروف الحياة السياسية، والاجتماعية، والقبلية؟ انظر إلى وجهك في ما تبقّى من المرآة التي اعتديت عليها دون مبرر فهشمتها وتهشمت قبضتك التي أخاطها لك ذلك الجرَّاح الذي صدف بأنه كان أحد زملائك في الدراسة، ولم تبادله الحديث ولم تقل له كلمة شكر، على الرغم من شدة لطفه معك! انظر إليها، فهي المرآة الوحيدة التي تحمَّلت جبروتك، وبقي جزء منها يصارع لكي يواسيك. كم أنت شاحب يا صديقي! وكم أنا حزين! أنا أفتقدك، ولا أجد ما يواسي وحدتي، فأنت مسافر لا موعد محدد لعودته، وأنا بانتظارك على ضفة الوجع.

لم تكد تطل الشمس بشعاعها حتى خرجت مهرولاً إليه، متمنيًا أن يخيب حدسي. كان بيته يبعد عني ثلاثة شوارع، التهمتها بخطى أخذت تتسارع شيئًا فشيئًا. كان الباب مفتوحًا كعادته. دخلت على

صديقي لأجده ممددًا في وسط الغرفة. أخذت أهزه بلطف فلم يحرك ساكنا. هززته بعنف وعنف أكبر، لم يتحرك. أظنه قد قضى؛ كانت ذراعاه ممدودتين جانبًا كالمصلوب، ويده اليمنى تضغط بشدة على ورقة صفراء. حرّرت الورقة من كفّه بصعوبة، فإذا بها صكّ مالي حان موعده منذ أسبوعين.

الحاسة السابعة

وجوهٌ وعيون وشفاه تتحرك برتابة، وأحيانًا تتحرك بشكل فوضوي، تتسارع الحركة كلما زاد حقدهم الذي لا نهاية له.

هو شابّ، وسيم، أشقر، عيناه رماديتان، ليست رمادية كما تبدو، إلا إنني لا أرى فيهما غير اللون الرمادي، ربما يراها غيري زرقاء بلون السماء، ولكنها لا تعدّ عندي غير رمادية، فهو- كما قلت- شاب وسيم، ولكنه يحمل بندقية؛ بندقية القتل والقمع، فقد سلب حياة ودمَّر أحلامًا، وحدَّ من طموحات بريئة. نعم، هو جندي يقف بالمرصاد لكل من يرسم على شفتيه ابتسامة. يقف شاهرًا حقده الملعون. يقف بانتظار بعض فرصة ليطلق رصاصاته على أي شيء

ينبض، ليعود إلى رفاقه في المساء مباهيًا بأنه قد أوقف حياة. يجلس في مقهى على طرف شارع عريض يعج بالمارة. حراك غريب! هذه المرة الوجوه مختلفة، مختلفة بقسماتها، وشفاهها، وملامحها، مختلفة بلون ابتساماتها، ولكنَّ عيونها رمادية، تشبه كثيرًا لون عينيه، عيون سايكوباتية، مجردة من ذلك البريق، يجلس وفي يده كأسًا كبيرة يملؤها جعة قبل أن ينفد ما في داخلها.

لم يأت أحد غيره في ذلك المساء، فبقي وحيدًا. حاول الجلوس مع نفسه فلم يجد ذاته، لا يجد ما يحدث به نفسه، فارغ من كل مضمون، فلا تراث له، ولا شجون، ولا رصيد في ذاكرته غير تلك الوجوه التي أفقدتها رصاصاته كل حياة.

تناول كتابًا وُضع منذ زمن طويل فوق رفّ بجانب مجموعة كبيرة من الكتب. أراد العبث وليس القراءة. أخذ يداعب صفحاته، ربما يجد به ضالّته، أو ربما بين سطوره يجد بعضًا من ذاته. بدأ يقرأ ويقلِّب صفحاته، وكلما قرأ به سطراً أخذ يعدل من جلسته. زاد اهتمامه بالقراءة. بدا على وجهه علامات مختلفة.، صارت يداه ترتجفان. يقرأ

بنهم شديد، لم يعد يهتم بملء كأسه، بل لم يعد يأبه بشرب الجعة بقية الليلة كما تعود. غيَّر مكان جلسته، والتزم زاوية المقهى البعيدة عن متناول الأنظار.

ضاقت الفجوة بينه وبين ذاته، لم يشعر بالوقت كيف مرَّ إلا عندما جاءه النادل يطلب منه المغادرة بلطف. استأذنه باستعارة الكتاب. وضع سبابته علامة بين دفتي الكتاب. صعد غرفته بدون التفات لأمه التي كانت نائمة على كرسي من القش بانتظار عودته. أخذ يقرأ ويقرأ ويقرأ، شعر بقشعريرة غريبة تدب في أوصاله، تغيرت ملامحه، وتبدل لون عينيه، تقوقع في سريره، تشتت فكره. أعاد قراءة بعض الصفحات أكثر من مرة، مرَّ على شريط حياته، تنكّر لما فيه من مشاهد يندى لها الجبين، ثم ذهب في غيبوبة لا إرادية.

قُبيلُ الفجر، سُمع صوت رصاصة واحدة، ارتعدت لصوتها فرائص والدته، فهرعت إلى غرفته، وصعدت السلالم كالمجنونة تكاد تموت خوفًا. الباب مغلق من الداخل. زاد خوفها، وأخذت تصرخ بأعلى صوتها وهي تشق ثيابها. تجمَّع الجيران، وحضرت الشرطة،

وكُسر الباب. إنه جثة هامدة، لم تظهر ملامح لوجهه، لم يُرَ سوى اللون الأزرق في عينه اليسرى، وكانت بندقيته الصماء مسجاة بجانبه باردة لا روح فيها، وبقية رصاصة تشهد على قهر القهر، وكتاب صفحاته اصفرَّت بفعل الزمن تناوله ضابط الشرطة وقرأ فيه، أومأ برأسه، ثم أمر الجميع بترك المكان فورًا.

سمير الجندي
بطاقة ذاتية – أدبية

مواليد مدينة القدس في 29/ 11/ 1958.

المؤهلات العلمية:

1. درجة الدبلوم في التربية.
2. درجة البكالوريوس في الأدب العربي.
3. درجة الماجستير في اللغة العربية في النقد الحديث.

العمل النقابي :

1. رئيس نقابة العاملين في قطاع التعليم الخاص في القدس.
2. عضو اتحاد قطاعات التعليم في الأرض المحتلة.
3. أحد مؤسسي الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.
4. مسؤول العلاقات الدولية في اتحاد المعلمين.
5. الناطق الإعلامي باسم الإتحاد.
6. عضو الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين.

النشاط الاجتماعي والعمل الجماهيري:

1. عضو الهيئة الإدارية في نادي الهلال المقدسي.
2. عضو الهيئة الإدارية في مؤسسة العناية الأهلية.
3. عضو الهيئة الإدارية في جمعية برج اللقلق.
4. نائب رئيس نادي بيت حنينا.

العمل الوطني :

1. عضو سابق إقليم فتح القدس.
2. عضو اللجنة الشعبية للتعليم إبان الانتفاضة.
3. عضو المؤتمر الشعبي في القدس.

المشاركات الدولية:

1. شارك في المؤتمر العام لاتحاد المعلمين البريطانيين.
2. شارك في المؤتمر العام لاتحاد المعلمين- تركيا.
3. شارك في المؤتمر العام لاتحاد المعلمين- فرنسا.
4. عمل ورشات عمل ولقاءات مع المعلمين النرويجيين.
5. لقاءات وورشات عمل مع المعلمين الإسكوتلنديين- جلاسكو.
6. مؤتمر حقوق الإنسان في النرويج وتقديم ورقة عمل عن اللاجئين.

7. المشاركة في المؤتمر العام لاتحاد العالمي للمعلمين– تايلند.

المشاركات الثقافية والإنجازات الأدبية:

1. أحد أعضاء ندوة اليوم السابع – المسرح الوطني الفلسطيني.
2. له كتابات في الصحف والمجلات المحلية والدولية.
3. له دراسات أدبية نقدية وأوراق عمل نشرت عبر المواقع الإلكترونية.

صدر له:

1. "الطوفان"– قصص. الدار للنشر والتوزيع، القدس، 2006.
2. "نبضات"– نصوص. صدرت بالتعاون مع الاتحاد العام للكتاب، رام الله، 2007.
3. "خلود"– رواية. الكتب للطباعة والنشر، القدس، 2009.
4. الرواية الفلسطينية والتراث، روايات ديمة السمان أنموذجًا. دار الجندي للنشر والتوزيع، القدس، 2011.
5. "باب العامود"– قصص. دار الجندي للنشر والتوزيع، القدس، 2011.


AL JUNDI
PUBLISHING HOUSE